أَرْكَانُ الإِسْلَامِ [1]

الشَّهَادَتَانِ
وَأَحْكَامُهُمَا

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لِلَّه حقّ حمده، والشكر له سبحانه على فضله وإحسانه حَقَّ شكره وإحسانه، والثناء عليه جل جلاله لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على نَبيٍّ جاء بالهدى ودين الحق، فتح الله تعالى له به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًّا، وعيونًا عُميًا، هدى الله تعالى به من شاء بعد الضلالة، واستنقذ بعد العماية، فكان بحقٍّ رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه وأتباعه إلى يوم الجزاء والدين.

أما بعد، فلقد أكرمني الله تعالى وإخوتي بوالدٍ صالح، غيورٍ على الدين، عزيزٍ به، فنشأنا مع لبان الأم الصالحة الرؤوم على العقيدة السليمة، وحب العلم والعمل به، والحرص على العيش به، والغيرة على الدين والاعتزاز به، والحمد لله.

ومع أننا نشأنا في بلاد بعيدة عن بلاد العرب، إلَّا أن العقيدة السليمة، والإسلام الحق كان هو الدينَ الذي يعيش به المسلمون في أكثر مناطق الدولة الإسلامية المتغلغلة إلى جنوب أوروبا والبلقان.

وحين أكرمنا الله تعالى بالهجرة مع الوالد والعم رحمهما الله تعالى في

سبيل حفظ الإسلام من بلادنا الأصلية ألبانيا سنة (١٣٥٦هـ) الموافق (١٩٣٧م) حيث الأهل والمال والوطن إلى بلاد الشام التي بارك الله تعالى فيها[١]، وجعلها مُهاجَر الأنبياء قديمًا، ومُهاجَر الصالحين فيما بعد[٢]، وذهبت إلى الأزهر الشريف لتعلم العلم، ثبتني الله تعالى هناك على العقيدة السليمة، والإسلام

---

(١) الوطن: هو المكان الذي ينشأ فيه الإنسان ويقيم، قال ابن الرومي:

وحبب أوطانَ الرجال إليهمو ... مآرب قضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو ... عهود الصبا فيها فحنُّوا لذلكا

وقال إقبال:

وكل بلاد الله أرضي إذا انتهى ... إلى الإسلام فيها الحكم والنهي والأمر
ولو كان ظهر البحر دنيا عقيدتي ... لأصبحت الدنيا لديَّ هي البحر

(٢) • قال زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: بتنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع: أي نجمعه: إذ قال: «طوبى للشام»، قيل: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه» رواه أحمد.

• وعن عبد الله بن عمر قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلَّا لحق بالشام» رواه الحاكم، وقال: صحيح.

• وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إني رأيتُ كأن عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عُمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان ــ إذا وقعت الفتن ــ بالشام» رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

• وعن عبد الله بن حَوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستجندون أجنادًا جندًا بالشام وجندًا بالعراق وجندًا باليمن»، قال: قلت يا رسول الله: اختر لي، قال: عليكم بالشام فمن أبى فليلحق بيمنه وليسق غدره فإن الله عزَّ وجلّ تكفَّل لي بالشام وأهله» رواه الحاكم. وقال: صحيح الإسناد وأقرَّه الذهبي.

• وقال خُريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه: [أهل الشام سوط الله في الأرض ينتقم بهم ممن يشاء وحرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم ولن يموتوا إلَّا هَمًّا أو غيظًا أو حزنًا] رواه أحمد.

الحق، والعيش بالإسلام، وزادني يقينًا في ذلك والحمد لله، ثم حين كبرت السن، وشاب الرأس، وتجمع لديَّ شيء من العلم بفضل الله تعالى، رأيت حقًّا عليَّ أن أكتب للناس ما أرجو به النفع لي ولهم، في أركان الإيمان وأركان الإسلام، على مذهب إمام أئمة الفقهاء أبـي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى ورضي عنه، فشرعت فيها وكتبت (أركان الإيمان) في كتاب واحد، وأركان الإسلام كل ركن في كتاب، والحمد لله.

ثـم وفـق الله أن أجمـع هـذه الأركـان فـي كتـاب واحـد، وأولهـا ركـن الشهادتين، عَلَمَ التوحيد، من قالهما عصم دمه وعرضه وماله، فما هو معناهما وحكمهما؟!

وفيما يأتي توضيح ذلك في ثلاثة فصول.

والله سبحانه أسأل الأجرَ والمثوبة، وأن يجعله عملاً صالحًا لوجهه الكريم، وأن ينفع بعملي هذا كما نفع بأصوله، وأن يجنبني الزيغ والزلل، إنه جواد كريم.

وأسأل الله تعالى أن يلهم القراء الكرام دعوة خالصة مستجابة لي وأن يغفر الله تعالى لي ولوالديَّ وأهلي ومشايخي، وأن يكرمني بحسن الخاتمة، وقضاء كل حاجة في رضاه سبحانه، إنه سبحانه مولانا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❑❑❑

المقدّمة
الدّين حَاجَةُ الإنسان الأُولى

١ ــ الدين فطرة الإنسان:

خلق الله تعالى الإنسان مفطورًا على الإيمان، مغروزًا في طباعه الاعتقادِ بإلٰه خالق باريء.

فلو تُرك هذا الإنسان وفطرته، لما اختار سوى الإيمان بالله تعالى، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانِهِ أو ينصِّرانِهِ أو يُمَجِّسَانِه»[1].

والمراد بالفطرة: الخلقة المعروفة الأولى المخالفة لخلق البهائم، قال بعض أهل الفقه والنظر: على خلقةٍ يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة.

وقيل: المراد بالفطرة: ما أُخذ عليهم في صلب آدم يوم خلقهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وإن الولادة تقع عليها حتى يقع التَّعْبير بالأبوين، وقرره أبو العباس القرطبي، بأن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول

(١) رواه البخاري: جنائز ٩٢، تفسير ٣٠؛ ومسلم: قدر ٢٥.

الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام، وصحته[1].

وقيل: المراد أن الله تعالى قد فطرهم على الأفكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم عليه السلام الميثاق حين خلقهم، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فقالوا جميعًا: بلى، فأما أهل السعادة، فقالوا بلى، على معرفةٍ له طوعًا من قلوبهم، وأما أهل الشقاوة، فقالوا: بلى، كرهًا لا طوعًا[2].

وإنَّ مما يؤكد فطرة الإيمان في الإنسان، أن الله تعالى لم يَدْعُ الإنسان إلى الإيمان، فإن الإيمان فطرة، وإنما دعاه إلى الإيمان بالله وحده، وهو الحق، كما قال سبحانه: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

كما أننا لا نجد آية تأمر الإنسان بأكل الطعام، لأن العمل على حفظ الحياة عن طريق الأكل وغيره فطرة في الإنسان، وإنما نجد تخصيص الطعام أن يكون حلالاً طيبًا، أو أن يكون اعتدالاً دون إسراف، مثل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ ــ الدين إجابة على الأسئلة الدائمة في حياة الإنسان:

مَن أنا؟ لماذا خُلقت؟ ماذا يُراد بي؟ ماذا يُراد مني؟ إلى أين المصير؟ ما هذا الكون؟ من أوجده؟ من جعله صالحًا لانتفاع الإنسان والحيوان به؟ ما شأنه؟ ما حدوده؟ وما غايته ونهايته؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يعجز عن الإجابة عليها كلُّ عقل وفِكر، وفلسفة وحضارة، إلَّا أن يرجع إلى الدين يسأله، ويأخذ منه الجوابَ الصحيح.

---

(١) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي زرعة العراقي ٧/ ٢٢٥.

(٢) المرجع السابق ٧/ ٢٢٧.

لقد ضلَّ عقل الهوى والتقليد ضلالاً بعيدًا، حين دخل مداخل ما بعد الطبيعة، فقال على جهل أو هوى أو تقليد أعمى: إن هذا الكون قد وُجد هكذا. وتجنب الوقوف عنده، والتفكير فيه؛ ليستر ضلاله وعجزه. وهو يعلم، ويقرر للناس: أن سطرًا من كتاب لا يُكتب هكذا دون كاتب، ومائدة طعام لا تهيأ هكذا دون عامل، فكيف يوجد هذا الكون؟! هذه العلوم المختلفة؟! هذا الإنسان العجيب؟! هكذا صُدفة دون خالق قادر عليم حكيم؟!!

كما ضلَّ هذا العقل حين ألَّه نفسه، فأراد أن ينظم حياة الإنسان على الأرض، وهو لا يعلم حقيقةً، ما هذا الإنسان، ولا يعلم مستقبل هذا الإنسان، ولا مستقبل حياة الناس على الأرض.

لذا تجده يُرقع كل يوم آراءه أو يغيرها، يضيق أو يوسع أحكامه عليه باسم التقدم والمصلحة، دون أن يعترف بالعجز عن إدراك حقيقة هذا الإنسان، وما يُصلح هذا الإنسانَ ويَصْلح له.

٣ ــ الدين علم ومعرفة حقَّة:

من المعلوم أن طرق الوصول إلى المعارف ثلاثة:

(أ) **الحواس من السمع والبصر واللمس والشم والذوق**، وهو أقل مراتب المعرفة، فإن الحواس ضيقة المجالات، محدودة القوى، ويعرض لها النقص والضعف والفتور والخطأ أكثر من سواها.

(ب) **العقل والتفكير**، وهو أعلى من الطريق الأول، ولكنه كذلك ضيق المجال، محدود بالتصورات، لا يدرك إلَّا ما يتصور، محدود القوة لأنه كائن في هذا الإنسان المخلوق المحدود، وأنَّى له إدراك الغيوب.

(ج) **الخبر الصادق**، وهو أعلى مراتب المعرفة، وأشرفها، لأنه مستمد من الله الذي خلق فسوَّى، لا تخفى عليه خافية مما خلق وأنشأ، ثم نقل إلى الإنسان ما شاء منه بواسطة رسول من خلقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

وكلما قرب علم الخبر من صدق القائل والناقل، كان أجدر بالقبول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، و ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، اللَّهمَّ لا أحد. ومِنْ عِلْمِ الخبر هذا ــ بعد حقائق الدين ــ المعارفُ النظرية، بل وكثير من المعارف العملية، فالكثير الكثير من حقائق العلوم العملية تُنقل إلى الناس على أساس أنها معلومات مأثورة مروية، لا داعي للتحقيق فيها والتمحيص لها، فاعجب بعدُ بمن لا يؤمن إلاَّ بما يشاهد، ثم يدعُ الخبرَ الصادق والعقل جانبًا.

٤ ــ الدين تنظيم لشؤون الفرد والمجتمع:

لا ريب أن خالق هذا الإنسان ومالكه هو الله سبحانه، وهو جلَّ جلاله العليم الخبير به وما يضره وما ينفعه، فهو وحده الجدير بأن يشرع لعباده ما يصلح نفوسَهم، وقلوبَهم، وأخلاقَهم، وما يصلح حياتهم في صِلاتهم بأنفسهم وأهليهم والمجتمع، في العقيدة والمعاملة والسلوك، على أساس العبودية لله تعالى، والأخوة المُحِبَّة للناس.

وما أراني بحاجة إلى القول أن تخبط البشرية ــ بعيدًا عن توجيه الدين ــ وتنازعها يقوم في الصعيد الفكري والعَقَدي على تقدير صلاح الفرد والمجتمع، وفق آراء وأفكار ومصالح معينة، وكلٌّ، كما قال الشاعر:

وكــل يــدّعــي وصــلاً بليلــى ... وليلــى لا تقــرّ لهــم بــذاكــا

لذا نجد الإنسان في نفسه، وربطه بالمجتمع، والمجتمعات بالمجتمعات

يزداد تعقدًا وضمورًا، وبُعدًا عن التعاون على البر والتقوى كلما ابتعد عن مسار الدِّين، وترك الدين وراءه ظهريًّا، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

٥ ــ الدين تلبية لأشواق وأماني:

الحب، الرحمة، الشوق، التواضع، الصدق، الأمانة، الرجاء، من يحرك هذه العواطف في قلب الإنسان كما يفعل الدين؟

إن الدين هو وحده الذي يعلق القلب بحب الكمال، وحب الكامل البريء من النقائص والعيوب، بالغني الكبير المتعال، وهو الله سبحانه، وجميع ما يكون في سبيله وابتغاء مرضاته سبحانه، حتى حب الزوجة والولد والمال، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والصدق مع الخلق، وحب الخير للناس كافة.

من يحوِّل القلب نحو الرحمة، وإغاثة اللهفان، ومساعدة الضعيف، وعون المحروم، مثل الدِّين؟

إنَّ الصورة مهما كانت معبِّرة في إظهار البؤس والفقر، لا تكاد تحرك قلب الإنسان نحو موضع المال لاستخراجه ومساعدة الفقير والبائس، لأن الصورة لا تثير فيه جانب الاندفاع إلى مساعدة الآخرين.

وقل مثل هذا في الصدق والأمانة، والعفة والحياء. إنَّ المصلحة والمنفعة واللذَّة لا تُعَلِّم خُلقَ الصِّدق والعفَّة؛ لأنَّ المصلحة زئبق لا يثبت على ميزان، وبَرْق خُلَّب لا يستقر على حال، ودعوى يركبها لهواه كل إنسان.

والأماني في حياة الإنسان سعادة وراحة، حبور وسرور، طمع في العيش في نعيم لا يعكره كدر، في سرور لا يعتوره حزن، هذه الأماني ينظمها، ويحققها في الإنسان الدين، ولا شيء غير الدين، إنك لتسمع حتى في البلاد التي يراد لها أن لا تؤمن بالله، تسمع فيها تلك الأشواق والأماني، دار النعيم، مقهى الفردوس، جنة الأطفال... يُرَبَّى فيها الناس أن يعتقدوا أنهم إذا فرغوا

من الأعمال، أو أُحيلوا إلى التقاعد سيحيون بعدُ في نعيم، وراحة وسعادة؟! وكثير منهم ينفقون على أنفسهم في كبرهم ما جمعوه بشقاوة النفس، وعلى انحراف السلوك في شبابهم، فأين تحقق الرجاء؟

أما الدين فهو يُرَغِّب في الجنة، دار الراحة والسعادة الحقة، حيث يجد المؤمن ــ حقًّا ــ ما تشهيه نفسه، وتلذ عينه، على سرور لا يعتوره حزن، وصحة لا يعرض لها مرض، في حياة لا يقتنصها موت، وشباب لا يأتي عليه شيخوخة، على دوام لا يدركه زوال.

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ...﴾ [محمد: ١٥].

٦ ــ الدين سعادة:

في الإخلاصِ لله تعالى مالك الملك، الذي يملك الإثابة والعطاء، ومنح المرء ما يحب ويتمنى، في حب الخير الذي يندفع إليه المؤمن دون انتظار مكافأة بل شكرٍ من الناس، لأنه قد فعل ذلك كله لله، وقد وقع أجره على الله.

وأنى أن يتحقق ذلك بغير الدين؟ من يدفع الإنسان إلى الإخلاص للناس، ولو تنكروا لفضله أو جحدوا معروفه؟ الذكر الحسن؟ ثناء الناس؟ كتب التاريخ؟ كل هذا في نظرهم لا يساوي شيئًا، إذ لا يفيده في الحصول على منصب أو مال أو حاجة مرغوب فيها، وقل مثل هذا في سواه، وواقع الحياة في المجتمعات المختلفة المتمدنة منها وما دونها يُفيد هذا!!

من دفع ذلك اليهودي الأميركاني إلى أن يبيع أسرار القنبلة الذرية إلى روسيا، وهو يعيش في أميركا، ويعيش من العمل بها..؟

من دفع موظفين كبارًا في دول عديدة إلى أخذ الرشاوي من شركات تبيع

لبلادهم ما تحتاج إليه؟ لا شكّ أنَّ المرتشي لا يبالي تطبيق المواصفات الحقّة في المشترى من تلك الشركات، فيخون بذلك مصلحة بلاده، إذ يذهب ببعض مالها هدرًا في سبيل الشيطان، أو قل: في سبيل مصلحته الخاصة هو.

لو أخلص أولئك لله لامتنعوا عن الخيانة خوفًا من الله.

٧ ــ الدين حماية وتربية:

الدين حماية من فساد القلب وحسده، وبُغضه وأنانيته، الدين حماية للتربية من فساد السلوك في السرقة، والاحتيال، والكذب، والغيبة، والنميمة، وإرادة الشرِّ، والحرمانِ بالناس.. الدين تربية للقلب على المحبَّة، في أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به.

ولا أراني بحاجة إلى عقد مقارنة بين حالة المؤمن القلبية والسلوكية، وحالة الملحد القلبية والسلوكية؛ الأول يربطه بالخُلُق دين، كما تربطه به صلاة وصيام، أما الملحد فلا يربطه بالخلق إلَّا مصلحة، أو خوف ورجاء مرتقب، لأنه لا دين له.

وواقع الحياة في الأفراد، والمجتمعات المُعْرِضة عن الدين برهان وأي برهان.!

٨ ــ الدين سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة:

ذلك لأن المؤمن يعتقد أن جميع ما يصيبه في حياته هو خير له، قد يكون خيرًا في الظاهر والحقيقة، وقد يكون خيرًا في الحقيقة فقط، لقد كان رسول الله ﷺ إذا أصابته النعماء قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أصابه غير ذلك قال: «الحمد لله على كل حال»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال».

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كلَّه خير إنْ أصابته نَعماء حَمِد الله تعالى عليها فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضَرَّاءَ صبر عليها فكان خيرًا له؛ فكل أمر المؤمنين خير»[1].

إن المؤمن يعتقد أن الدنيا مزرعة للآخرة، وما من فَلّاح إلَّا ويتعب في زرعه رجاء الحصاد، فالمؤمن مهما نصِب وبذل، وقاسى وناله من مكروه، يعلم يقينًا أنه أمر زائل، ثم هو يُخلف خيرًا كثيرًا عند الله، وما الدنيا عنده سوى أيام... وستمضي الأيام ويبقى حلوها، وأجرها.

عن أنس رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فَيُغْمس فيها غمسة ثم يقال له: يا فلان، هل رأيت نعيمًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا يا رب، ما رأيت نعيمًا قط وما مرَّ بـي نعيم قط. ويؤتى بأبأس أهل الدنيا من أهل الجنة فيغمس فيها غمسة ثم يُقال له: يا عبد الله، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك بؤس قط؟ فيقول: لا يا رب، ما رأيت بؤسًا قط، وما مرَّ بـي بؤس قط»[2].

أمَّا في الآخرة، فالأمر واضح، إن السعادة في الآخرة وَقْفٌ على من آمن بالله حقًّا، قال رسول الله ﷺ: «ألا لَنْ يدخل الجنة إلَّا كلُّ نفسٍ مؤمنة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

إنَّ النَّار مقرّ ومنتهى مَن كفر بالله، والأمر يومذاك على ما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) رواه مسلم: الزهد ٦٤ عن صهيب مع اختلاف في اللفظ؛ وأحمد ٥/ ٣٤.

(٢) رواه مسلم: منافقين ٥٥؛ وأحمد ٣/ ٢٠٢.

(٣) رواه البخاري: جهاد ١٨٣؛ ومسلم: إيمان ١٧٨؛ وأحمد ٣/ ٢٠٩.

إن أخطر أمراض البشرية اليوم مرض القلق والاضطراب. . عدم الرضا بالموجود، والتعلق بالمجهول، بالأمل، حتى يأتي قاطع الأمل وهادم اللذات، وهو الموت بما فيه.

إن حوالي ٧٥ ٪ من الشعب السويدي من فوق الثلاثين من العمر، يحتاج إلى تعاطي المواد المهدئة للأعصاب، والمساعدة على النوم. ويدخل المستشفيات والمصحات العقلية السويدية ١١٠ آلاف شخص كل عام، ومنهم ٢٢ ألفًا يُؤخذون إلى مستشفيات الأمراض العقلية إجباريًّا لحالاتهم الخطرة على الناس، ويموت ثمة ٢٠٠٠ شخص منتحرين، والذين يحاولون الانتحار ويتم إنقاذهم يصلون إلى ٥٠ ألف شخص[١].

وإنه لممَّا لا شك فيه، أنَّ راحة البال أساس راحة الأعصاب، ولا شك أن الرضا بما قسم الله تعالى هو الغنى الحاضر، وفيه هدوء الفكر، وراحة الأعصاب، وقرار الروح والعيش الهنيء، قال رسول الله ﷺ: «اتَّق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأَحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[٢].

٩ ــ الدين مع الإنسان دائمًا:

كان مع الإنسان الأول في السماء: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . . وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣١ و ٣٥].

وكان معه حين أهبط إلى الأرض لِعَمار الأرض: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

---

(١) من مقالة في حضارة الإسلام بعنوان: أنباء فيها مزدجر، لكاتب هذه الرسالة.

(٢) رواه الترمذي: الزهد ٢؛ وأحمد ٣/ ٢١٠.

وكان معه فيما أرسل الله تعالى إلى كل أمة نبيًّا أو رسولاً: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، حتى النبي الأخير: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولن يزال هذا الدين مع الإنسان يعلمه، يعظه وينصحه، يرشده ويقوِّمه، إلى قرب قيام الساعة عند طلوع الشمس من مغربها، ويومذاك: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فالإنسان هو الإنسان ترفعه تَرْبيتُه، أو تضعه تربيته، لا يفعل فيه المظهر من اللبس والمركب والمسكن شيئًا.

حاجة الإنسان الفطرية والجسمية والروحية حاجة دائمة، وإنما يغذيها ــ حقًّا ــ الدين، الدين بما يربِّي الروح على الإيمان بالله تعالى وطاعته، ويربِّي العقل بالعلم النافع، والبحث، وطلب المعرفة، ويربي الجسم بالتمتع بما أباح الله من أنواع الطعام والشراب واللباس، مما هو طيب نافع مباح دون ما هو خبيث وضار.

كم يخطىء أولئك الذين يظنون أنَّ الإنسانَ العصري غير الإنسان القديم، وأنَّ مطالب الاثنين الحقيقية قد اختلفت.

انظر إلى حب النفس، والأنانية، والاستئثار، وحب التسلط، وحب الجنس الآخر والولد والمال، هل تغيَّرت في إنسان العصر عن الإنسان القديم؟ أم قد تغيرت مظاهر ووسائل لا غير؟!

انظر إلى حاجة الإنسان إلى الهواء، والطعام، والشراب، والكساء، هل اختلفت بين إنسان اليوم وإنسان الأمس البعيد هذه الحاجة؟ لا، وإنما تغيرت مظاهر ووسائل؟!

انظر إلى تقدير العقلِ للصدق، والأمانة، والعفَّة وبرّ الوالدين، وحب

الخير للآخرين، وحب النظام، وطاعة الحاكم، انظر هل اختلف تقدير العقل قديمًا لها عن تقدير العقل اليوم لها؟ وهكذا هكذا. . .

إنَّ الإنسان هو الإنسان، ترفعه تربية دينية صحيحة، ويضعه فقدانُ تلك التربية.

إن الناس يقرؤون لعقلاء حكماء، عاشوا منذ مئات السنين ولا يبالون بكتَّاب نَوْكى يعيشون في عصرهم، لأن أولئك كانوا عقلاء حكماء ذوي آراء جيدة في الحياة، وهؤلاء سفهاء حمقى ذوو تربية هي الهوى، والغرض الرخيص.

١٠ ــ وأخيرًا:

إن حاجة الإنسان إلى الدين ضرورية فوق حاجته إلى الطعام والشراب وكل شيء، لأن الدين يُعَرِّف الإنسان مواقع رِضَى الله تعالى عنه ومساخطه، في جميع أعماله الاختيارية، وهي مبنية على الوحي الذي لا يخطِىء، ولا يجهل بحال.

قال ابن القيِّم[1]: «هي حاجة أشد من حاجة الناس إلى الطعام والشراب، لأن غاية ما يُقَدَّرُ على عدم التنفُّس والطعام والشراب موتُ البدن وتعطل الروح عنه، وأما ما يُقَدَّر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد، وأعظم من حاجة الناس إلى الطب، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب؟»، يعني: ولا يستطيعون أن يعيشوا على خير بغير دين.

❑❑❑

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢، بتصرف.

الفصل الأول
بلاغ الدّين إلى النّاس

وإنما بلَّغ هذا الدينَ الناسَ رُسُلٌ من البشر، أوحى الله تعالى إليهم بما شاء بواسطة المَلَك وبغير واسطة الملك، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]. هذا الدين هو الإسلام، الذي يعني: الخضوعَ والانقياد لله تعالى عن طواعية واختيار، لِما جاء من الله تعالى من أوامر ونواهٍ ووصايا وأحكام.

هذا الإسلام دين واحد، جاء به أنبياء الله تعالى ورسله، بدءًا بآدم، وانتهاءً بمحمد عليهما وعلى سائر الأنبياء والمرسلين الصلاةُ والسلام.

قال الله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال في شأن يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وقال في شأن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى

وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

وقال سبحانه لرسولنا محمد ﷺ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال سبحانه مبينًا وحدةَ دينِ الرُّسُل جميعًا: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

أصول الدِّين:

* إنَّ أصول الدين واحدة في رسالات الأنبياء والرسل جميعًا، وهي: أصول أربعة:

١ ــ **العقائد**: من الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢ ــ **العبادات**: من الصلاة، والزكاة، والصيام، قال الله تعالى في شأن إسماعيل عليه السلام: ﴿... وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥]، وقال على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال في بيان التكليف العام بها رُسلَهُ وأقوامَهم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ ٱللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٩٨]، وقال سبحانه لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

٣ ــ **الأخلاق**: من الصدق، والأمانة، وحفظ حقوق الآخرين، قال الله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: ٣٧]، وقال في شأن إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم: ٥٤]، وقال في شأن عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]، ورُوي أن رسولنا محمدًا ﷺ قال: «إنما بعثتُ لأتمم مَكارم الأخلاق»[1].

٤ ــ **الحلال والحرام**: من حل البيع وحرمة الربا.. من حل الهدية وحرمة أكل أموال الناس بالباطل، قال الله تعالى في شأن المغضوب عليهم من اليهود الملعونين على لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]، وقال في شأن أهل الكتاب: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝٦٣﴾ [المائدة: ٦٣].. ومن حل أكل لحوم الأنعام المذكاة، وحرمة غير المذكاة منها، وحرمة لحم الخنزير، وحرمة قليل الخمر وكثيره.

* إنَّ الدِّين الذي جاء به الأنبياء والمرسلون جميعًا يقوم على أصول خمسة، تسمَّى الكليات الخمس.

١ ــ الدين، وحمايته من العدوان عليه.

٢ ــ النفس، وحمايتها من العدوان عليها بغير حق.

---

(١) رواه مالك: حسن الخلق ٨؛ وأحمد ٣/ ٢٨١.

٣ ــ المال، وحمايته من العدوان عليه بالباطل.

٤ ــ العرض، وحمايته من العدوان عليه بالقول أو بالفعل.

٥ ــ العقل، وحمايته من اغتياله بالخمر أو المخدر.

شرائع متعددة:

١ ــ وأنزل الله شرائع على بعض رسله، وهي طرائق في القيام بتلك الأصول، وهي تختلف من شريعة إلى غيرها، قال الله تعالى: ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال سبحانه في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقال في حق رسولنا محمد ﷺ: ﴿... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ليس بيني وبينه نبي والأنبياء أولاد عَلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»، أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو صحيح[1].

٢ ــ وقد كان شأن كل شريعة أنها تَنسخُ وترفعُ ما سلفها من الشرائع، لأنها في زمانها حكم الله تعالى وأمره ونهيه، وما يضرُّ الناس أن ينتقلوا من

---

(١) روى بعضه البخاري: أنبياء ٤٨؛ ومسلم: فضائل ١٤٥؛ وأحمد ٣/ ٣١٩، وأبو داود: سنّة ١٣.

شريعة ورثوها، إذا جاءتهم شريعة أُخرى ناسخة لها أُمروا باتباعها؟!؛ فالأصول واحدة بين ما سلف من الشريعة وما جاء بعدها، والله سبحانه أعلم بما يصلح لعباده، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

لقد جاء عيسى عليه السلام يحكم بالتوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام نورًا وهدى، ثم أنزل الله تعالى عليه الإنجيل فعمل به، ودعا قومه بني إسرائيل إليه، قال الله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ . . . ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال على لسانه عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣ ــ وجاءت شريعة الإسلام الأخيرة ناسخة لما سلفها من الشرائع في حق الناس عامة، إلى أن يرث الله الأرض وَمَنْ عليها، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٨].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مَثَلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إنَّ العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارًا، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي، دخل الدار، وأكل من المأدبة. ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوّلوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة،

والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا ﷺ، فقد عصى الله عز وجل، ومحمد فَرْقٌ بين الناس»[1].

وتواترت دعوتُه ﷺ للناس ــ على اختلاف شرائعهم وعقائدهم ــ إلى شريعة الإسلام الخاتمة، فدعا عبَّاد النار إلى الإيمان به ﷺ واتِّباعه، ودعا عباد الأصنام إلى الإيمان به واتباعه، ودعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به واتباعه، قال الله تعالى على لسانه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثمَّ لا يؤمن بي إلاَّ دخل النار» مسلم.

وقال الله تعالى له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٤ ــ والأنبياء والرسل كثيرون، وقد روى أحمد في «مسنده» أن الأنبياء يزيدون على مئة وعشرين ألفًا، وأن الرسل ثلاث مئة وعشر رسولاً، والله تعالى أعلم بصحته.

وقد ذكر الله تعالى من أولئك الأنبياء والمرسلين في القرآن «٢٥» نبيًّا، أُمرنا بالإيمان بهم عدًّا وتفصيلاً، ومن سواهم نؤمن بهم إجمالاً، أي: إذا قيل لأحدنا: هل تؤمن بأن فلانًا نبي؟ نقول: إن صح بالدليل الشرعي أنه نبي أو رسول آمنَّا به، وإلاَّ فلا، لأنا نؤمن بأن الله تعالى بعث أكثر من خمسة وعشرين نبيًّا ورسولاً، قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ

(١) رواه البخاري: بدء الخلق ٦؛ ومسلم: إيمان ٢٦٤.

وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤].

الدّخول في الدّين:

يتم الدخول في الدين بالشهادتين، ولفظهما: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أو ترجمتها لمن لا يعرف العربية[١].

الشهادة لغة: الخبر القاطع، وشرعًا: إخبار صدق لإثبات حق[٢]، وقال الراغب: الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، ثم قال: والشهادة: قول صادر عن علم بمشاهدة بصيرة أو بصر. اهـ[٣].

فالشهادة لا تكون قائمة على وهم أو ظن، وإنما على يقين بالعلم، أو الحواس، وفيها ورد قوله ﷺ: «إذا علمتَ مِثل الشمس فاشهد»[٤].

الشهادة لله تعالى بالوحدانية:

هي: الإخبار القاطع الصادر عن يقين واضح، أنه ليس ثمة معبود يستحق الإيمان به، وإفراده بالعبودية ورجاء النفع به، وخوف الضرر منه، وطلب الرزق وقضاء الحاجات، ودخول الجنة والنجاة من النار إلاَّ الله تعالى، الذي له الأسماء الحسنى سبحانه.

إنَّ الله تعالى واحد في ذاته، ليس مؤلفًا من أجزاء وأبعاض، لا يحل في

---

(١) يعتبر ولد الأبوين المسلمين ــ أو الأبِ ــ مسلمًا، ويعتبر من كان غير مسلم مسلمًا بصلاته مستقلاً ومع الجماعة، وبصيامه رمضان مع المسلمين، إذا لم ينكر الإسلام إذا عرض عليه، وإلاَّ فلا يعتبر هذا الصنف الثاني مسلمًا عند المسلمين، والله تعالى أعلم بحقيقة حاله عنده.

(٢) اللباب ٢/ ٢٩٠.

(٣) مفردات الراغب، طبع البابي، ص ٢٦٨.

(٤) رواه الديلمي، وله ألفاظ. انظر: كشف الخفاء ٢/ ٧٠.

مكان ولا تحويه جهة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، واحد في ذاته: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣]. . ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]. . . ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

إنَّه سبحانه واحد في صفاته، له سبحانه الصفات العُلى، ليس لصفاته ابتداء، وليس لها انتهاء، هي صفات كاملة تامة، ما عرض لها ولا يعرض لها نقص يومًا، ولا يعرض لها زيادة ونموّ يومًا، هي صفات قديمة قائمة بذات الله تعالى، والله وحده يعلم كيفية اتصافه بها.

إنَّ صفات الله تعالى لا تشبه صفات المخلوقات، فالله تعالى عالم، ولكن ليس علم الله تعالى كعلم العباد له ابتداءٌ وامتدادٌ وانتهاءٌ، وله وسائله، بل علمه سبحانه صفة أزلية قديمة تامَّة ما كانت ناقصة يومًا فنمت، ولا يعرض لها نموّ ولا انتهاء في المستقبل، معاذ الله. . وكذا سائر صفات الله تعالى.

ليس لله سبحانه من كل نوع إلاَّ صفة واحدة، فليس لله سبحانه قدرتان مثلاً، ولا علمان، بل قدرة واحدة، وعلم واحد، وهكذا سائر الصفات فيقال: العلم واحد والمعلوم متعدد، القدرة واحدة والمقدور متعدد، وإلاَّ لزم وقوع المؤثرين على أثر واحد، والله أعلم.

قال الشيخ سعيد: إن المسلم عندما قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥]، فكأنه يقول: لا مطمأنّ إليه، ولا مستجار به، ولا محبوب، ولا معبود، ولا مالك، ولا مطاع، ولا معظم، ولا معتصم به، ولا سيد، ولا حاكم إلاَّ الله. فالتوكل عليه واجب، والاستجارة بغيره جاهلية، ومحبته فريضة، ومحبة غيره لا تكون إلاَّ بإذنه.

ومعاني العبادة والعبودية لا تقدَّم إلاَّ له، وهو مالكي وحده، فلا أطيع

غيره إلاَّ بإذنه؛ وهو المستحق للتعظيم، فبه أعتصم؛ وهو الذي له حقُّ السيادة المطلقة على البشر، والحاكمية المطلقة عليهم، فهو مصدر الأمر والنهي، وهو مصدر التحليل والتحريم، وهو مصدر التشريع؛ فلا سلطة تشريعية إلاَّ له، فهو ذو الجلال وذو الكمال، جل جلاله، سبحانه لا إله غيره.

وأي إخلال بواحدة من هذه، بحيث يعطيها الإنسان لغير الله تعالى بدون إذنه جَهْلٌ بما لله من حق، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣][1].

لقد كان المشركون يعلمون معنى (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)، لذا كانوا ينفرون منها فضلاً عن الركون إليها والإيمان بها. ﴿ . . . وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الزمر: ٤٥].

عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل، ويفعل، ويقول، ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته. .

فأرسل إليه، فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشي أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقّ عليه، فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مجلسًا قرب عمه، فجلس عند الباب. . فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما لقومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثَروا عليهِ من القول. . وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إني أُريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تَدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجمُ الجزيةَ»

---

(١) الإسلام ١/ ٢٥.

ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟! نعم وأبيك عشرًا. فقالوا: ما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ). فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]. قال: فنزلت الآيات من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص: ٨][1].

ويأتي الكلام على الشهادة لرسولنا محمد ﷺ بأنه عبد الله ورسوله في موضعه بإذن الله تعالى.

فَضْل كَلِمة الشَّهَادتين:

لا بد من النطق بالشهادتين لمن يريد الدخول في الإسلام. قال اللقاني في «جوهرة التوحيد»:

وفُسِّر الإيمانُ بالتصديق ... والنطقُ فيه الخُلف بالتحقيق
وقيل: شرط كالعمل، وقيل: بل ... شطرٌ، والإسلامَ اشرحنَّ بالعمل

وقال علماء التوحيد: لا يقبل إيمان الكافر إلَّا بالنطق بالشهادتين مطلقًا، أو عند طلب ذلك منه، عند الله وعند الناس، والله أعلم بسرائر القلوب وخفايا الصدور.

● عن أنس رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح أو يمسي: اللَّهم إني أصبحت أُشهدك وأُشهد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك بأنك أنت الله لا إله إلَّا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك؛ أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين؛ أعتق الله نصفه، ومن قالها ثلاثًا؛ أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، فإن قالها أربعًا؛ أعتقه الله من النار»[2].

---

(١) رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن. كذا في ابن كثير ٤/ ٢٨.
(٢) رواه أبو داود بإسناد جيد ٤/ ٣١٧. انظر: الأذكار؛ والترمذي.

● وكفى بالشهادتين فضلاً ومكانة عند الله تعالى أن جعلهما الله تعالى من ألفاظ الأذان والإقامة، ومن جملة دعاء التحيات في القعود الأول والأخيرِ من الصلوات، ويسميه الفقهاء دعاء التشهد ذكرًا للتحيات بأهم ما فيها في حق العبد.

● وقد أورد ابن خزيمة حديث سلمان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في استقبال رمضان، وقد جاء فيه: «واستكثروا فيه من أربع خصال: خَصلتين تُرضون بهما ربكم، وخصلتين لا غَناء بكم عنهما. فأما الخصلتان اللّتان تُرضون بهما ربكم فشهادة أن لا إلٰه إلاَّ الله وتستغفرونه، وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار. ومن سقى صائمًا سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة».

قال علامة الهند حبيب الرحمن الأعظمي في تعليقه على المطالب العالية: إن صحّ الخبر. والله أعلم.

وحين جاء عكرمة [ابن أبي جهل] مؤمنًا واستقبله الرسول ﷺ بحفاوة قال لأصحابه: «اذكروا محاسن موتاكم». ثم عرض على عكرمة ما يريد من منصب أو مال فقال: إنَّه لا يريد سوى مغفرة الله تعالى وأن يوصيه الرسول ﷺ بما ينفعه. فنصحه أن يكثر من «أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وأنَّ محمدًا رسول الله» كي يعم نور التوحيد قلبه ويضيء جوانب نفسه ويلين بها لسانه. وقد أكرمه الله بالصدق في الإسلام وفي الجهاد حتى استشهد في معركة اليرموك ومات متأثرًا بجراحه ورأسه في حجر خالد رضي الله عنهما.

وكان الشيخ حسن البنا حين أصيب برصاصات سبع استقرت في جسمه يكثر أن يقول: لا إلٰه إلاَّ الله محمد رسول الله، لا إلٰه إلاَّ الله محمد رسول الله. وأخذته الرحضاء فلمعت عيناه وضم شفتيه بحزم وقال: إنَّ الله حق إنَّ الله حق. ثم قضى رحمه الله تعالى.

وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخرُ كلامه لا إله إلاَّ الله؛ دخل الجنة»[1].

قال غالب بن قطان: أتيت الكوفة في تجارة، فنزلت قريبًا من الأعمش، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمرّ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]. ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة.

قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عزّ وجل: عبدي عهد إليّ، وأنا أحق من وفّى بالعهد؛ أدخلوا عبدي الجنة»[2].

ونحن نقولها، فأكْرِمْنَا بالجنة دون مناقشة حساب ولا سابقة عذاب يا أرحم الراحمين. آمين.

(١) رواه أبو داود ٣/ ١٩٠، والمعجم الكبير ٢٠/ ١١٢؛ والمستدرك على الصحيحين ١/ ٥٠٣؛ والترمذي ٣/ ٣٠٧.

(٢) رواه الطبراني في الكبير. انظر: مختصر ابن كثير ١/ ٢٧٢.

obeikandl.com

الفصل الثاني
كمالات اللّـه تعالى

لقد قرر علماء التوحيد من قديم وجوبَ وصفِ الله تعالى إجمالاً ــ دون تحديد ــ بكل صفة من صفات الكمال، وتنزيهِه سبحانه عن كل صفة من صفات العيب والنقصان، فقالوا: الله تعالى خالق كل شيء، من الذوات والصفات والأفعال، فهو سبحانه موصوف بكل صفة من صفات الكمال، ومنزَّه عن كل صفة من صفات النقصان، وقالوا: إن العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعدل، والرحمة، والحكمة... إلخ، من صفات الكمال في العبد، فيجب أن يكون الله تعالى متَّصفًا بها؛ إذ كيف يكون منعمًا بنعمة القدرة والعلم وأمثالهما على العبد، ولا يكون هو سبحانه متصفًا بها؟ فيكون فقيرًا ناقصًا!! ثمَّ، كيف يهب تلك النعم على من شاء من عباده ثم لا تكون هي له من قبل؟! وفاقد الشيء لا يعطيه.

ألا إنَّ صفات الله تعالى هذه ــ وسائر صفاته سبحانه ــ كاملة تامة، ما سبقها عدم، ولا طرأ عليها نقص، ولا يعرض لها خلل ولا نقص، أو زوال أو فناء بحال من الأحوال. وصفات العبد خَلْقٌ من الله تعالى، لم تكن فأوجدها الله تعالى، والتي أوجدها ناقصة أكمل منها ما شاء، ثم يعرض لها على الزمان النقص والخلل، ثم يكون الزوال والفناء وفق مشيئة الله وإرادته.

وقرروا كذلك وجوب وصف الله تعالى تفصيلاً ــ تحديدًا ــ بكل ما

وصف به نفسه كما وصف به نفسه، بعيدًا عن التشبيه والتعطيل، والله تعالى وحده يعلم كُنْهَ ذاتِه وصفاته.

وَحْدَانيَّة الله تعالىٰ:

الله تعالى واحد لا شريك له، لا قرين له ولا صديق، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

لقد دعت رسل الله تعالى جميعًا إلى الإيمان بالله تعالى، وإفراده سبحانه بالعبودية والطاعة، كإفراده سبحانه بالربوبية والإيجاد، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وحدانية الله أمر مقرر في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة، على تصريف في الآيات وتنويع فيها:

قال الله تعالى مقررًا وجوب اليقين بوحدانية الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال سبحانه مقررًا منعَ قيام الكونِ أو انتظامه واستمراره لو كان معه سبحانه سواه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال سبحانه مقررًا امتناع بقاء الإلٰه على تدبير الكونِ لو كان معه آلهة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣].

وقال سبحانه مقررًا ما يشهد به العلمُ والواقع، أنه ليس ثمة إلٰه خالق سوى الله، فكيف يعبد مخلوق مخلوقًا مثله، ويدع عبادة الخالق سبحانه

وحده؟! قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]، وقال: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [الرعد: ٦١].

وقال سبحانه مقررًا افتقار كل شيء إليه سبحانه، وغناه سبحانه عن كل شيء، وذلك ــ لعَمْرُ الله ــ دليل الألوهية الحقة، قال سبحانه: ﴿ . . . وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧، ٥٨].

وقال سبحانه مقررًا إيجاده هو لهذا الكون، وحفظه إياه من الفساد والزوال، إلى حين يشاء جلَّ جلاله، قال سبحانه: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . . ﴾ [فاطر: ٤١].

وقال سبحانه مقررًا كمال سلطانه على الكون وأهله، بحيث لا يفوته فائت من خلقه، فقال: ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [العنكبوت: ٢٢]. وقال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٩].

وفيما ذكر من الآيات الكريمة غَنَاءٌ عن ذكر الأحاديث الشريفة التي تقرر وحدانية الله سبحانه، ووجوب إفراده سبحانه بالتوجه إليه والعبادة له.

إنَّ أمر وحدانية الله تعالى مقرَّر في كل شيء.

● إن الخبر الصادق ــ ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء: ٨٧] ــ يقرّر وحدانية الله تعالى، فمنذ أقدم ما عرف البشر من عقائد، عرف فيها الوحدانية أوّلاً، ثم دخل عليها ما دخل من شرك ووثنية، حتى بلغت آلهة اليونان أكثر من ألف إله باطل!! فإذا قال الله تعالى، ثم قال صفوة الله من خلقه،

والعقلاء والحكماء قديمًا وحديثًا: إن الله تعالى واحد، فأحرِ به أن يكون صدقًا وحقًّا، فليس ثمَّة من هو أصدق من الله حديثًا، وليس في البشر من هو أصدق من صفوة الله من خلقه حديثًا. والعقلاءُ والحكماء قدوة في الناس، وأسوة في هذا الأمر خاصة.

● إن البداهة والضرورة تقرر وحدانيةَ الله تعالى، فما يرى الإنسان مصنوعًا إلاَّ ويبدر إلى ذهنه أن صانعه واحد، ولقد نطقت بهذه البداهة ألسنة عباد الأوثان أمام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في فَتْرة من فتراتِ صفاء النفس، وحكم العقل: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: ٦٤ ٦٥].

● إن الفكر النير، والمنطق السليم، يقرر وحدانية الله تعالى، ويكفي لتقرير هذا المعنى، ما أوردنا من الآيات الشريفة. إنَّ الفكر لا يرتضي أن يجتمع سلطانان بَلْهَ حاكمين على جماعة، بل ولا مدرسان في فصل واحد، ولا مديران لمدرسة، إنه يحكم بأن النظام سيختل، والفساد سيستشري، فكيف يكون للكون أكثر من إله، وشأن الألوهية السلطانُ والانفراد بالأمر، واستمع إلى قوله تعالى في هذا المعنى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣].

● إن العلم الكوني يقرر وحدانية الله تعالى، قال الأستاذ عبد الرزاق نوفل: والمتدبر للحياة بكل ما فيها، يجد الأدلة العلمية والمنطقية على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فكل الكائنات الحية أصلها خلية حية واحدة، وكل المواد الأخرى أصلها ذرة واحدة، وفي داخل الخلايا الحية، مكونات واحدة من أصل واحد، وكل ما في الذرات كهارب من أصل واحد، فوحدة الخلق، ووحدة الأصل، إنما تؤكد وحدة الخالق.

وتنقسم الخلية الحية، ــ كل خلية وأي خلية ــ بطريقة واحدة، وبشكل

واحد، وتتكاثر الأحياء بطريقة واحدة، فالناس كلهم منذ آدم عليه السلام حتى نهاية البشر، تناسلهم بطريقة واحدة، أينما كانوا في مشرق الأرض ومغربها، في قديم الزمان أو حديثه، والطيور والنباتات لم يحدث أن شذ في تناسلها أو تكاثرها مجرد فرد واحد، ألا يشير ذلك إلى وحدة الخالق؟

ووصل العلماء إلى حقيقة علمية مؤكدة، وهي تناسق الحركة، وتماثلها في كل الكون، فإن الكهارب داخل الذرة نسبتها إلى الفراغ الذي في الذرة كنسبة أفراد مجموعة الشمس إليها، ونسبة المجموعة الشمسية إلى غيرها، وهكذا تستمر سلسلة من نِسَب متساوية ومتناسقة لا تختلف، بل إن سرعة دوران هذه الكهارب حول مركزها وحول بعضها بالنسبة لحجمها تعادل تمامًا سرعة دوران المجموعات الكونية.

إن هذه الوحدة في كل الخلق، والتناسق والتكامل، إنما تؤكد وحدة الخالق جل شأنه.

وبتحليل مكونات المجموعة الشمسية، وُجد أنها كلها تتكون من عناصر واحدة، وبتحليل جسد الإنسان والحيوان والنبات وجد أنها كلها أيضًا تتكون من عناصر واحدة.

إن الوحدة في الخلق هي الصفة الأولى الأساسية التي تسير إليها الحياة في كل صورها[1].

---

(١) أسئلة حرجة ص ٢٦، وهذا الكتاب ــ على فائدته ــ يحوي أشياء خطيرة، أخطرها ما يعد مكفرًا في الإسلام، وهو نفي ما تواتر من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، وقد حكم ــ تقليدًا لشلتوت والقاديانية، وإن كان الشيخ شلتوت حكم بضعف تلك الأحاديث لا وضعها، لكنه رجع والحمد لله ــ بوضع أحاديث نزول عيسى عليه السلام وهي تصل إلى (١٠٣) نصوص ما بين حديث وأثر. وانظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للعلاَّمة الكشميري بتعليق الشيخ عبد الفتاح رحمهما الله.

● **ملاحظة**: يحلو لبعضهم جهلاً وغرورًا، أن يزعم بأن مع الله تعالى شريكًا، أو أنه سبحانه وتعالى اتخذ صاحبةً أو ولدًا، فيزعمون أن رسولاً قال لقومه: أبـي الذي في السماء.

إن الواجب في ذلك الكلام، وأمثاله، أن يعرض على منصة التحقيق، فهل كان ذلك حقًّا كلام رسول من رسل الله؟.

لقد قرأنا معًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال الله تعالى على لسان عيسى صلَّى الله عليه وعلى نبينا وسلَّم: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال لقومه حين حدثهم وهو في المهد: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي. . .﴾ [مريم: ٣٠ ــ ٣٢].

والكتاب الذي نقل ذلك الكلام ليس كتاب الله قطعًا، بل هو كتاباتُ معاصرين لرسولٍ، أو غير معاصرين، من حفظهم، وما نُقل إليهم من ذلك الكتاب الذي ضاعت أصوله، لذا تعددت نسخه، وتبدلت، وتعارضت أحيانًا، وما أُنزل ذلك الكتاب ــ كسائر الكتب ــ إلاَّ مرة واحدة، والله أعلم.

وقال عبد الله بن محمد بن السَّيِّد البطليوسي مؤلف أسباب اختلاف المسلمين، المتوفى سنة ٥٢١:

إلٰهي إني شاكر لك حامد ... وإني لَساع في رضاك وجاهدُ
وإنك مهما زلّت النعل بالفتى ... على العائد الأوَّاب بالعفو عائد
تباعدتَ مجدًا وادَّنَوْتَ تعطفاً ... وحلماً فأنت المُدني المتباعد
وما لي على شيء سواك معوَّل ... إذا دهمتني المعضلات الشدائد
أغيرك أدعو لي إلٰهًا وخالقًا ... وقد أوضح البرهان أنك واحد
وقِدْمًا دعا قوم سواك فلم يقم ... على ذاك برهان ولا لاح شاهد

وبالفلك الدوّار قد ضل معشر ... وللنيرات السبع داع وساجد
وللعقل عباد وللنفس شيعة ... وكلهُم عن منهج الحق حائد
وكيف يضِلُّ القصدَ ذو العلم والنُّهى ... ونهج الهدى مَنْ كان نحوك قاصد
وهل في التي طاعوا لها وتعبدوا ... لأمرك عاصٍ أو لحقك جاحد
وهل يوجد المعلول من غير علة ... إذا صح فكرًا أو رأى الرشد راشد
وهل غبتَ عن شيء فينكر منكر ... وجودك أم لم تبدُ منك الشواهد
وفي كل معبود سواك دلائل ... من الصنع تُنبي أنه لك عابد
وكل وجودٍ من وجودك كائن ... فواجد أصْناف الورى لك واجد[1]
سرتْ منك فيها وحدة لو منعتها ... لأصبحت الأشياء وهي بوائد[2]
وكم لك في خلق الورى من دلائل ... يراها الفتى في نفسه ويشاهد
كفى مكذبًا للجاحديك نفوسُهم ... تُخاصِمهم إن أنكروا وتعاند[3]

«آيات الله في الكون»:

للشيخ أحمد عبد الرحيم السايح:

١ ـ لله في الآفاق آياتٌ لعلْ ... لَ أقلها هو ما إليه هَداكا
٢ ـ ولعل ما في النفس من آياته ... عَجب عُجاب لو ترى عيناكا
٣ ـ والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولتَ تفسيرًا لها أعياكا
٤ ـ قل للطبيب تخطفته يد الردى ... يا شافي الأمراض من أرداكا
٥ ـ قل للمريض نجا وعُوفي بعدما ... عجزتْ فنون الطب من عافاكا
٦ ـ قل للبصير وكان يحفر حُفرة ... فهوى بها من ذا الذي أهواكا
٧ ـ بل سائِل الأعمى خطا بين الزحا ... م بلا اصطدام من يقود خطاكا

---

(١) فالله تعالى خالق كل شيء، وفي كل شيء آية تدل على الله تعالى وتهدي إليه.

(٢) أي لخربت وانتهت هذه الكائنات.

(٣) نسيم الرياض في أخبار القاضي عياض.

٨ ــ قل للوليد بكى وأجهش بالبُكا ... لـدى الـولادة مـا الـذي أبكـاكـا
٩ ــ وإذا تـرى الثعبـان ينفـث سَمّـه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا
١٠ــ واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهـدًا وقـل للشهـد مـن حـلاكـا
١١ــ بل سائل اللبن المصفَّى كان بيـ ... ـن دم وفـرث مـا الـذي صفـاكـا
١٢ــ وإذا رأيت الحيّ يخرج من حَنا ... يـا ميـتٍ فـاسـألـه مـن أحيـاكـا
١٣ــ وإذا ترى ابن السود أبيض ناصعًا ... فـاسـألـه مـن أيـن البيـاضُ أتـاكـا
١٤ــ وإذا تـرى ابـن الأبيـض فـاحمًـا ... فـاسـألـه مـن ذا بـالسـواد طـلاكـا
١٥ــ قـل للهـواء تحسّـه الأيـدي ويخـ ... ـفى عن عيون الناس من أخفاكا
١٦ــ قـل للنبـات يجـفّ بعـد تعهّـدٍ ... ورعـايـة مَـنْ بـالجفـاف رمـاكـا
١٧ــ وإذا رأيت النبت في الصحراء ير ... بـو وحـده فـاسـألـه مـن أربـاكـا
١٨ــ وإذا رأيـت البـدر يسـري نـاشـرًا ... أنـواره فـاسـألـه مـن أسـراكـا
١٩ــ واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبـ ... ـعـد كـل شـيء مـا الـذي أدنـاكـا
٢٠ــ قل للمرير من الثمار من الذي ... بـالمـر مـن دون الثمـار غـذاكـا
٢١ــ وإذا رأيت النخل مشقوق النَّوى ... فـاسـألـه مـن يـا نخـل شـق نـواكـا
٢٢ــ وإذا رأيـت النـار شـبَّ لهيبهـا ... فـاسـأل لهيـب النـار مَـنْ أوراكـا
٢٣ــ وإذا ترى الجبل الأشم مناطحًا ... قمم السحاب فسله من أرساكا
٢٤ــ وإذا رأيت النهر بـالعـذب الـزلا ... ل جـرى فسلـه مَـن الـذي أجـراكـا
٢٥ــ وإذا رأيـت الليـل يغشـى داجيًـا ... فاسأله مَنْ يا ليل: حاك دُجاكا
٢٦ ــ وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحكًا ... فاسأله من يا صبح صاغ ضُحاكا
٢٧ ــ هذي عجائب طالما أُخذت بها ... عينـاك وانفتحـت بهـا أذْنـاكـا
٢٨ ــ واللَّهُ في كـل العجـائب ماثـلٌ ... إن لـم تكـن لتـراه فهـو يـراكـا

ا هـ.

● يزعم بعضهم ــ جهلاً وغرورًا ــ أن الله تعالى يقرر تعدد الخالقين،

إنه يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩][1]، وغفلوا أن الله تعالى يصف نفسه بالعظمة، ولا تكون لغيره سبحانه فيعبَّر بنُونِ الجماعة، ومع ذلك فقد جاء الخلق منسوبًا إلى الله تعالى بصفة الإفراد، لتفقأ في أعين المكذبين الحصرَم والمِرار، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤].

أسبابُ الإشراك بالله تعالى:

فإذا كان أمر وحدانية الله تعالى في هذا الظهور، الذي يفوق ظهورَ الشمس في رابعة النهار، فما الذي يدفع بعضهم إلى الإشراك بالله تعالى أو الإلحاد؟ هي أسباب عديدة يمكن حصرها فيما يلي:

١ ــ التقليد الأعمى للآباء، والموروثِ من التقاليد والعادات:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

حين أسلم عمرو بعد أخيه خالد رضي الله تعالى عنهما، قال فيهما أبان أخوهما ــ قبل أن يُسلم ــ يندد بهما، ويذكرهما بأبيهما الذي هلك بمكان يقال له: الظريبة:

أطاعا معًا أمرَ النساء فأصبحا ... يُعينان من أعدائنا من يكايد

فقال عمرو يجيبه:

أخي ما أخي شاتم أنا عرضَه ... ولا هو عن سوء المقالة يُقْصِرُ

---

(١) موقع الشاهد: في قوله: ﴿إِنَّا﴾. فعلى زعمهم أنه استعمل صيغة الجمع تقريرًا للتعدد!! وهذا جهل في فهم النص واستعمال اللغة، فإن لفظ ﴿إِنَّا﴾ جاء للتعظيم وليس للتعدد.

يقــول إذا اشتــدت عليــه أمــوره ألا ليــت مَيْتًــا بــالظــريبــة ينشــر
فــدع عنــك مَيْتًــا قــد مضــى لسبيلــه وأقبل على الحــق الذي هــو أظهر[1]

وما أحسن قول أحدهم في هذا التقليد الأعمى المجنون:

عُمْيُ القلــوب عَمُــوا عــن كــل فائــدةٍ لأنــهــم كــفــروا بــالله تــقــلــيــدًا

ولا يظن القارىء الكريم أن أصحاب التقليد الأعمى قد ذهبوا مع أهل الجاهلية، لا... إن (١٢٠٠ مليون) ألفًا ومئتي مليون من البشر في الهند، والصين، واليابان، وغيرها يعبدون الأصنام، ولا يهتدون إلى عبادة الله تعالى وحده.

إنهم أقوام تعلموا، ودرسوا، وتثقفوا، مع ذلك فهم يصرون على ذلك التقليد الأعمى المجنون لآبائهم الوثنيين، أو يتظاهرون بذلك.

٢ ــ الحسد والبغي:

ولقد حال الحسد بين بني إسرائيل والإيمان برسول الله ﷺ، حين بُعث، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حُدِّث، أنَّ أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زُهرة، خرجوا ليلة، ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وهو لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذ طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٥٣١.

الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أولَ مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا الحنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حَلَفت به كذلك.

قال ثم خرج من عنده! حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعتُ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسَيْ رِهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[1].

٣ ــ إيثار عاجل الشهوات والمصالح:

كان رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، حين جاء إليها الشاعر أبو بصير (الأعشى)، وكان مشركو مكة قد جعلوا على أنقابها رجالاً ينفرونهم من رسول الله ﷺ ودعوته، فلما جاء هذا الشاعر، قال له أولئك: إن محمدًا ﷺ يحرم الزنى. فقال: قد كبرت سني، فما بقي لي مطمع في الزنا. فقالوا: إنه يحرم الخمر، فقال: أما هذه فلا... فقال (المسكين) أنه يعود هذا العام إلى بلاده نجد، فيشرب الخمر ما استطاع، فإذا جاء الموسم القادم قدم مكة، وقد

---

(١) سيرة ابن هشام، تحقيق السقا وإخوانه ١/ ٣١٥.

ارتوى من الخمر، فيسلم فيمتنع عن الخمر. فوقصته الناقة في طريق عودته إلى بلاده، فسبقت به إلى جهنم ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

وكم من الناس تمرغوا في المنكرات، واستمرؤوا الفواحش والموبقات، فهم يصرون على دعوى الشرك أو الإلحاد، ليستمروا في غوايتهم، دون منغص من دين يحرم ما يحبونه، أو إله يغضب ما يأتونه، ويعاقب على ما يفعلونه، حتى... يبغتهم هادم اللذات، وقاطع الشهوات، فيسبق بهم إلى النار، وبئس المهاد.

٤ ــ الجهل القائم على إهمال العقل وعلومه:

يقول العلم: لو كانت قشرة الأرض أكثر سمكًا بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالي لما وجد الأوكسجين، إذ أن القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية، وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام أكثر من العمق الحالي لانجذب ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين، حتى يمتصهما الماء، ولاستحال وجود النباتات على الأرض فضلاً عن الحياة، ولو كان الغلاف الهوائي للأرض ألطف مما هو عليه الآن لاخترقت النيازك كل يوم غلافَ الأرض الخارجي، ولرأيناها مضيئة بالليل، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلاً في الثانية الواحدة، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة فإنها ستحرق كل شيء يمكن احتراقه على الأرض، حتى تصبح الأرض غربالاً في وقت ليس ببعيد.

فلولا أن غلاف الأرض الهوائي يقينا من هذه الشهب، لاحترقنا؛ فإن سرعتها أكثر من سرعة البندقية بـ (٩٠) مرة، كما أن حرارتها الشديدة كافية لإهلاك كل شيء بما فيه الإنسان، فنحن إذن في حماية هذا الغلاف الكثيف

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام.

الموزون الذي لا تخترقه الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية إلا بالقدر الذي يكفي لحياة النبات، وإيجاد الفيتامينات، والقضاء على الجراثيم الضارة وما إلى ذلك.

● إن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها في كل أربع وعشرين ساعة، ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مئتي ميل في الساعة لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات بالنسبة إلى ما هي عليه الآن، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس ــ لشدة حرارتها ــ كل شيء فوق الأرض، وما بقي بعد ذلك ستقضي عليه البرودة الشديدة في الليل.

إنَّنا نتحيَّر إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التلفون، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى ملبورن بأستراليا، تتم في بضع ثوان، فإذا كان تعقيد نظام أسلاك الهاتف يوقعنا في هذه الحيرة، فما بالنا بنظامنا العصبي، وهو أوسع من هذا النظام، وأشد تعقيدًا؟!

إنَّ ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي من جانب إلى آخر ليل نهار، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقها، وفي حركتها، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم في الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجودًا في أجسامنا، لصارت الأجسام تلفيقًا لأشياء مبعثرة، تسلك كل منها مسلكها الخاص.

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم، وتسمى هذه الأسلاك الأنسجة العصبية، وفي هذه الأنسجة يجري نظام استقبال وإرسال للأخبار، بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق، ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا.

بـل إنَّ هنـالـك ثـلاثـة آلاف مـن الشعيـرات المتـذوقـة، وتسمـى (TASTEBUDS)، ولكل منها مسلك عصبـي خاص، متَّصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات يُحَس بالمذاقات المختلفة.

وتوجد في الأُذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا.

وفي كل عين مئة وثلاثون مليونًا من الخلايا الملتقطة للضوء، وتقوم بمهمة إرسال هذه المجموعة التصويرية إلى المخ.

وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا، فإذا قربنا إلى الجلد شيئًا حارًّا، فإن ثلاثين ألفًا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية، وترسلها فورًا إلى المخ، وإذا قربنا إلى الجلد شيئًا باردًا فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأشياء الباردة تحس به، وعندئذٍ يمتلىء المخ بأسرها، ويرتعد الجسم، وتتسع الشرايين الجلدية، فيسرع مزيد من الدم إليها، ويزودها بالحرارة، وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة، فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ، وحينئذٍ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية تلقائيًّا عرقًا باردًا إلى خارج الجسم.

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع:

منها: الفرع المتحرك ذاتيًّا، ويقوم بأعمال تحدث ذاتيًّا في الجسم، كعملية الهضم، والتنفس، وحركات القلب.

ويندرج تحت هذا الفرع نظامان:

أحدهما النظام الخالق للحركة، والآخر هو المانع لها، وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع، ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه، ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفًا تامًّا.

وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها في دقة فائقة، وفي توازن عام، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين. فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة، وعندئذٍ تزيد سرعة عمليات القلب، والرئة. والنظام الثاني يتغلب عند النوم، فيسود السكون جميع الحركات الجسمية...[1].

إن العلم الذي يقرر هذه الحقائق وأمثالها، لا يعرف تفسيرًا لها وتعليلاً، وإنما يعرفه المؤمن من خلال قول الله تعالى للناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

إن القول بأن هذا كله إنما حدث صدفة، وبدون خالق عليم حكيم، جنونٌ، وصممٌ وعمى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

٥ ــ التربية الضالة المنحرفة:

قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»[2].

وقد تستمرّ تلك التربية الضالة بصاحبها حتى يموت عليها، أغلف القلب، أعمى، أصم، أبكم، فيكون من أهل النار، وما أكثر ما يفسد عقولَ الناشئة وإيمانَهم زخارفُ أقوالِ بعض المعلمين والكتّاب، والمتجبرين.

وقد تُهيأ لصاحب تلك التربية الضالة فرصة يبصر فيها خلاف ما كان

---

(١) من كتاب: الإسلام يتحدَّى، للأستاذ وحيد الدين خان، مفرقاً.

(٢) رواه البخاري؛ ومسلم، وتقدم.

عليه، فيعود إلى الفطرة، إلى الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، كما سمعنا ونسمع عن مشركين ملاحدة عادوا إلى الإيمان، ومنهم من عاد إلى الإسلام الحق، والحمد لله.

هذه ابنة ستالين (سفيتلانا) ولدت في بيت شيوعي، أبوها ذلك الوحش ــ كما يصفه كاتب شيوعي يوغسلافي، كان من أحبابه ــ الذي قتل الألوف من مخالفيه، وأقام على حكم روسيا في شدة وبطش نحوًا من ثلاثين عامًا، وأمها روزا اليهودية، ومع ذلك فقد آمنت سفيتلانا بالله تعالى، ثم أعلنت إيمانها، حين أمكنتها فرصة الخروج من بلادها، قالت: غير أني بعد أن شببت عن الطوق، دخل في قلبي أنه مستحيل أن يعيش الإنسان دون الشعور ولو في قلبه بوجود إله يحيي ويميت، ويهيمن على كل شيء في الوجود، ولقد توصلت إلى هذا العقيدة بدون أي إرشاد، أو عظة من أي شخص، ولكن هذا في حد ذاته كان تغيرًا عظيمًا في فكري، مما دفعني إلى التقليل من أهمية المبادىء الشيوعية الملحدة، ومن ثم فَقَدْت هذه التعاليمُ قوتَها في نفسي[1].

أما أوبارين رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا، الذي ظل (٣٧) عامًا يبحث عن أصل الحياة، وما إذا كان من الممكن إيجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيماوي، فقد قال: إن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، أو أن تتولد من التفاعل الكيميائي، والتوالد الذاتي، وإن العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادة.

هذا الرجل حين قيل له: فماذا تقول في هذا الوجود القائم؟ قال كلامًا يردد فيه صوت سيده، مما لا علاقة له بالعلم والعقل! قال: لعل الحياة جاءت

---

(١) أركان الإيمان، ص ١١٣.

إلى الأرض من كواكب أخرى، ثم ترعرعت في هذه الأرض حتى كان فيها الإنسان! ما أحراه أن يقال فيه[1]:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم

إنَّ الجنون فنون، وقد يظهر على ألسنة أقوام يُسَمَّون علماءَ كيمياء!.

فإذا سمعت هكسلي يقول: لو جلست ستة من القرود على آلة كاتبة، وظلت تضرب على حروفها ملايين السنين، فلا يستبعد أن تجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة عمليات عمياء ظلت تدور في المادة لبلايين السنين!!!

فلا تستهزىء به، ولا تضحك عليه، ولكن قل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا من خلقه. ثم دعه، وخذ بقول من قال: إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي، شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة. وذلك محال عادة.

التوسل إلى الله:

فإن قيل: أليس التوسل إلى الله تعالى بشيء، أو بأحدٍ، شركًا به سبحانه؟ أجيب: لا، لا تَنافيَ بين توحيد الله تعالى والتوسل إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]. إن التوسل إلى الله يعني: التقرب إلى الله بما يصح التّقرب به إليه، طلبًا للقرب منه سبحانه، والدرجة عنده، أو لقضاء حاجة بحصول نفع، أو دفع ضرر.

---

(١) انظر: كتاب الله جل جلاله للشيخ سعيد حوى، والجانب العاطفي في الإسلام للشيخ محمد الغزالي.

صـــوره:

١ ــ التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه سبحانه، أو صفة من صفاته:

سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: «اللَّـهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلـه إلاَّ أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أَجاب، وإذا سُئل به أَعطى»[(١)].

٢ ــ التوسل إليه سبحانه بطاعة من الطاعات:

كـالصـلاة، والصيـام، والحـجّ، والجهـاد، وقـراءة القـرآن، قـال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تُرد دعوتهم، الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»[(٢)].

٣ ــ التوسل إليه سبحانه بعمل من الأعمال الصالحة:

كتوسل الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار بأعمالهم الصالحة الخالصة لوجهه سبحانه، من بر الوالدين، والتعفف عن الزنا، وإعطاء الأجير حَقَّ أجره، حتى كشف الله تعالى عنهم الغمة، وانزاحت الصخرة عن فم الغار، فخرجوا يمشون. والخبر في البخاري.

٤ ــ التوسُّل برسول الله ﷺ:

جواز التوسُّل:

سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء: ولا بأس

---

(١) رواه الترمذي؛ وحسنه أبو داود، في الوتر ٣٣، وإسناده صحيح؛ ورواه أحمد ٥/٣٤٦.

(٢) رواه الترمذي: جنة ٢، دعوات ١٣٠.

بالتوسل بالصالحين، وقول أحمد: ويتوسل بالنبي ﷺ خاصة، مع قولهم: إنه لا يستغاث بمخلوق.

فقال: فالفرق ظاهر جدًّا، وليس الكلام مما نحن فيه، فكون بعض العلماء يرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي ﷺ، وأكثر العلماء ــ عنده ــ ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه مسألة من مسائل الفقه، وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه، فلا ننكره على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد[1].

فهذا الكلام من الشيخ يدل على جواز التوسل عنده، غاية ما يرى أنه مكروه في رأيه عند الجمهور، والمكروه ليس بحرام فضلاً عن أن يكون بدعة أو شركًا. اهـ[2].

قال ابن مفلح تلميذ ابن تيمية في كتاب الفروع له: ويجوز التوسل بصالح، وقيل: يستحب. قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي: إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه. وجزم في المستوعب وغيره. وقال في كشف القناع: قد استسقى عمر بالعباس ومعاوية بيزيد بن الأسود، واستسقى به الضحاك مرة أُخرى. ذكره الموفق والشارح. وقال السامري وصاحب التلخيص: إنه لا بأس في الاستسقاء بالشيوخ والعلماء المتقين. وقال في المذهب: يجوز التوسل برجل صالح، وقيل: يستحب. اهـ[3].

وقال الشيخ المالكي حفظه مولاه: على أن الشيخ ابن تيمية في بعض المواضع من كتبه أثبت جواز التوسل بالنبي ﷺ دون تفريق أو تفصيل بين حياته

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب من مجموعة مؤلفات الشيخ، القسم الثالث ص٦٨.

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٤٦.

(٣) براءة الأشعريين ١/ ٢٨٠.

وموته وحضوره وغيابه ﷺ. ونقل عن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام جواز ذلك[1].

* عن عثمان بن حُنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرتَ، فهو خير لك»، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللَّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي فشفعه فيّ»[2].

ولقد أخطأ من زعم أن رسول الله ﷺ قد دعا للرجل، فاستفاد الرجل من دعاء رسول الله ﷺ له، وأنه لا يتوسل به بعد انتقاله وموته.

والجواب عليه بأمور:

١ ــ ظاهر الحديث: فليس فيه أن رسول الله ﷺ دعا للرجل بشيء، فذلك التأويل دعوى عليه ﷺ دون برهان.

٢ ــ الرواية التالية، تبين أن المراد دعاء الرجل بنفسه متوسلاً برسول الله ﷺ لا دعاء الرسول أو غيره له: عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمانَ بن حُنيف، فشكا إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: إيت الميضأة، فتوضأ، ثم ائتِ المسجد، فصلِّ ركعتين ثم قل: «اللَّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي

---

(١) الفتاوى الكبرى ١/ ١٠٥.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه؛ ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة؛ والحاكم وصححه؛ وسلمه الذهبي؛ وابن ماجه؛ وابن السني وغيرهم.

الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربـي فتقضي حاجتي» واذكر حاجتك، ثم رُح حتى أروح.

فانطلق الرجل، وصنع ذلك، ثم أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البواب، فأخذه بيده، وأدخله على عثمان، فأجلسه معه على الطِّنْفِسة، وقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها. ثم قال: ما ذكرتُ حاجتَكَ حتى كانت هذه الساعة. فقال: انظر ما كانت لك من حاجة فائتنا.

ثمَّ إنَّ الرجل خرج من عنده، فلقي عثمانَ بن حُنيف، فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إليَّ حتى كلَّمْتَه، فقال له عثمان بن حنيف: ما كلمتُه، ولكني سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير، فشكا له ذهاب بصره... وذكر الحديث، وفيه: (قال عثمان: فوالله ما تفرقنا، ولا طال بنا الحديث، حتى دخل الرجل، وكأنه لم يكن فيه ضير قط)[1].

٣ ــ المؤمن يعلم أن حالته ﷺ في حياته عند الله كحالته بعد موته فهو على كل حال لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًّا إلاَّ بإذن الله تعالى، فإباحة التوسل به حال حياته ومنع ذلك بعد انتقاله فيه شبهة اعتقادية خطيرة، كأنها تعني أن أحدًا يملك مع الله شيئًا، ومعلوم أن رتبة النبوة لا تنقطع بالموت، إن التوسل بالرسول ﷺ توسل بنبوته، وحياته المباركة وأعماله الصالحة.

والتوسل بالأنبياء والصالحين هو توسل بذوات الأنبياء والصالحين المتصفة بالإيمان بالله تعالى وطاعته.

فالتوسل بالذات لا ينفك عن التوسل بالأعمال الصالحة. فلا ينبغي أن يقوم كبير خلاف وخصام بين المسلمين على التوسل بالنبي ﷺ،

---

(١) رواه الحاكم؛ والطبراني في «معجمه الكبير». انظر: مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٣٦؛ والترغيب والترهيب ١/ ٤٧٥.

أو بأحد من الصالحين بعد ما تبين الحق، والله أعلم[1].

مخالفته تَعالَى للحوادِث أو مُغَايَرته للمَخلوقات:

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكل ما خطر ببالك في حق الله تعالى فالله تعالى بخلاف ذلك.

الله سبحانه مغاير لمخلوقاته، فوجوده سبحانه ليس كوجود الخلق، ووحدانية الله تعالى، وكذا بقاؤه، وقدرته، وعلمه، وإرادته سبحانه؛ لا يشبه الله تعالى أحدًا من خلقه في شيء مما ذكر، ولا يشبهه سبحانه شيءٌ من خلقه في شيء مما ذُكر.

وكل ما أوهم مشابهة الله تعالى بشيء من خلقه، أو مشابهة شيء من خلقه له، فلا بد من ترك التعرض لتأويلها، مع القطع واليقين باستحالة ظواهرها على الله تعالى[2].

ولقد كان السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم يكرهون الخوض في المتشابهات مثل صفات الله تعالى، ويعاقبون من يخوض طلبًا للشبهة، أو تحريكًا لقلوب المنافقين والملاحدة للجرأة على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) انظر: مصباح الزجاجة في فوائد قضاء الحاجة، للمحدِّث عبد الله الصديق الغماري فقد أطنب في سرد طرق الحديث وشرحه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٤/ ١٤.

قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات في القرآن، لأن السائل إن كان يسعى بسؤاله تخليدَ البدعة، وإثارة الفتنة، فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، وإن لم يكن ذلك مقصده، فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب، إذ أوجد للمنافقين الملحدين في ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا ضعفةَ المسلمين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن عن مناهج التنزيل، وحقائق التأويل.

فمن ذلك ما حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، أنبأنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم، عن سليمان بن يسار، أن صَبيغ بن عِسْل قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، وعن أشياء، فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه، فبعث إليه عمر، فأحضره، وقد أعدّ له عراجين من عراجين النخل، فلما حضر، قال له عمر: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صَبيغ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: وأنا عبد الله عمر. ثم قام إليه، فضرب رأسه بعرجون، فشجه، ثم تابع ضربه، حتى سال دمه على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي. ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة، وقذفها في قلبه، فتاب، وحسنت توبته[1].

ذات الله تعالى وحقيقته مخالفة لذوات وحقائق المخلوقات كلها، فذات الله تعالى واجبة الوجود، لا ابتداء لوجودها، ولا انتهاء لها، ليست ذاته سبحانه مؤلفة من أبعاض وأجزاء كذوات المخلوقات كلها، لا يحتاج إلى حَيّز ومكان، لا تعرض له الجهات الست مثل سواه سبحانه مما خلق، ولا يفتقر إلى شيء مما خلق من هواء وماء وطعام، كما يحتاج إليه كلُّ ما خلق سبحانه، ولو شابه سبحانه خلقه في شيء من ذلك، لكان مماثلاً وموافقًا لشيء من خلقه، وذلك

---

(١) القرطبي ٤/ ١٥.

محال، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

صفات الله تعالى مخالفة لصفات المخلوقات التي خلقها؛ فصفة السمع والبصر من صفاته سبحانه، لا تشبه شيئًا من صفتي السمع والبصر في خلقه.

فخلقه يسمعون بآذان جعل الله فيها قابلية تَبَلُّغ الأصوات عن طريق الهواء، وقرب المسافة، والانتباه، والخلوّ من الأمراض، وأمثال ذلك، جعل لها تلك القابلية مع توفر تلك الشروط.. ومثله يقال في البصر وأمثاله.. ولا نعلم كيفية اتصاف الله تعالى بصفتي السمع والبصر، ذلك لأن ذاته سبحانه مجهولة التحديد لدى الخلق، فصفاته كذلك، وإن كنا نقطع أنهما ليسا من جنس صفات الخلق.

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: (وهو شيء لا كالأشياء، ومعنى الشيء إثباته بلا جسم، ولا جوهر، ولا عَرَض، ولا حَدّ له، ولا ضد له، ولا نِدَّ له، ولا مثل له[1]. وله يد ووجه ونفس، فما ذكره الله تعالى في القرآن مع ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات، بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته، أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته تعالى بلا كيف)[2].

---

(١) لأن الحدّ من طول، وقصر، واحتواء، وجهة من خواص الأجسام، لا ضد له تعالى أي لا منازع له سبحانه في ملكه، ولا شبيه ولا كفؤ ولا مماثل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

(٢) أي بلا معرفة كيفية؛ لعجزنا عن معرفة كنه صفاته، فضلاً عن معرفة كنه ذاته. (الفقه الأكبر بشرح علي القاري).

وانظر: منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر ص ١١٧ وما بعدها، للمؤلف.

القول في المُتَشَابِهات

* ورد في القرآن الكريم والسنّة الشريفة ما يوهم مشابهة الله تعالى لخلقه في الذهاب، والمجيء، والجهة، والمعية، والاستواء، والنزول، وغير ذلك، فكيف التوفيق بين إثبات ظواهر ذلك، وبين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]؟.

الجواب: إن التوفيق هو في حمل المتشابه من النصوص على المحكم منها، وتفويض المعنى الحقيقي إلى الله تعالى، مع التنزيه عن مماثلته سبحانه للخلق.

* قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى بعد كلام: اعلم أن الحق الصريح الذي لا مِراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف ــ أعني مذهب الصحابة والتابعين ــ وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه، **فأقول**:

حقيقة مذهب السلف ــ وهو الحق عندنا ــ أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث ــ المتشابهة ــ من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور:

التقديس، والتصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة.

١ ــ أما التقديس: فأعني به تنزيه الرب سبحانه وتعالى عن الجسمية وتوابعها.

٢ ــ وأما التصديق: فهو الإيمان بما قاله ﷺ، وأن ما ذكره حق وهو فيما قاله صادق، وأنه حق على الوجه الذي قاله وأراده.

٣ ــ وأما الاعتراف بالعجز: فهو أن يقرَّ بأن معرفة مراده ليستْ على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته.

٤ ــ وأما السكوت: فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه، ويعلم أن

سؤاله عنه بدعة، وأنه في خوضه مُخاطِر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر.

٥ ــ وأما الإمساك: فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أُخرى، والزيادة فيه والنقصان منه[1]، والجمع والتفريق، بل لا ينطق إلاَّ بذلك، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والتعريف والتصريف.

٦ ــ وأما الكف: فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكير فيه.

٧ ــ وأما التسليم لأهله: فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد خفي على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء.

فهذه سبع وظائف اعتقدَ كافة السلف وجوبها على كل العوام لا ينبغي أن يُظن بالسلف الخلافُ في شيء منها. اهـ.

* * *

* **فإن قيل**: إنَّ الله تعالى قد أثبت الفوقية لنفسه على خلقه، فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١].

الجواب: إن المراد هو فوقية رتبة ومكانة، لا فوقية جهة ومكان، لقد قال فرعون فيما حكى الله عنه: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ولا يعني قطعًا أنهم ادعوا فوقية مكانٍ وَجِهَةٍ على موسى عليه السلام وقومه.

---

(١) فلا تترجم كلمة استوى في لغة أخرى إلى معنى استقر، ولا يحول مثل ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾، فيقول: إنه سبحانه يستوي على العرش، أو هو مستو، لأن ذلك مما لم يرد به نص، فانظر إلى الحيطة والأدب مع الله تعالى في هذا الشأن، من هذا العَلَم، رحمه الله تعالى.

* **قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى وهو يشرح الوظيفة الأولى وهي التقديس التي سردناها آنفًا**: إذا سمع لفظ (فوق) في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]، فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين: أحدهما نسبة جسم إلى جسم، بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل، يعني أن الأعلى من جانب رأس الأسفل، وقد يطلق لفوقية الرتبة، وبهذا المعنى يقال: الخليفة فوق السلطان، والسلطان فوق الوزير، وكما يقال: العلم فوق العمل، والصباغة فوق الدباغة.

و (الأول) يستدعي جسمًا ينسب إلى جسم، و (الثاني) لا يستدعيه. فليعتقد المؤمن قطعًا أن الأول غير مراد، وأنه على الله تعالى محال فإنه من لوازم الأجسام أو لوازم أعراض الأجسام.

وإذا عرف نفي هذا المحال فلا عليه إن لم يعرف أنه لماذا أطلق؟ وماذا أريد؟ وقد خفف الله عنه هذه الكلفة، وأمثلة هذا كثيرة، فقس على ما ذكرناه ما لم نذكره[1].

وإن قال قائل: ما الذي دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها؟ أكان لا يدري أنه يوهم التشبيه، ويُغْلِطِ الخلق، ويسوقهم إلى اعتقاد الباطل في ذات الله تعالى وصفاته؟! وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك. أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال، وضلالة الضلال؟! وهذا أبعد وأشنع؛ لأنه بُعِثَ شارحًا لا مبهِمًا ملبسًا ملغزًا.

---

(١) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى ٢/ ٢٧٣؛ وكبرى اليقينات، للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٨؛ وشرح جوهرة التوحيد، للشيخ محمد أديب الكيلاني وزميله ص ١٩٢؛ وأركان الإيمان ص ٣٢، للمؤلف.

وهذا إشكال له وقع في القلوب، حتى جر بعض الخلق إلى سوء الاعتقاد فيه، فقالوا: لو كان نبيًّا لعرف الله، ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه في ذاته وصفاته. ومَالت طائفة أُخرى إلى اعتقاد الظواهر، وقالوا: لو لم يكن حقًّا لما ذكره كذلك مطلقًا، ولعدل عنها إلى غيرها أو قرنها بما يزيل الإبهام عنها.

فما سبيل حلِّ هذا الإشكال العظيم. . . ؟!

الجواب ــ كما قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ــ : الجواب: أن هذا الإشكال منحلّ عند أهل البصيرة.

وبيانه: أن هذه الكلمات ما جمعها رسول الله ﷺ دفعة واحدة، وما ذكرها، وإنما جمعها المشبِّه. وقد بينا أن لجمعها من التأثير في الإيهام والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها المتفرقة، وإنما هي كلمات لهج بها عليه السلام في جميع عمره في أوقات متباعدة؛ وإذا اقتصر منها على ما في القرآن والأخبار المتواترة، رجعت إلى كلمات يسيرة معدودة؛ وإن أُضيفت إليها الأخبار الصحيحة فهي أيضًا قليلة، وإنما أكثرت الرواياتُ الشاذة الضعيفة التي لا يجوز التعويل عليها، ثم ما تواتر منها إن صح نقلها عن عدول فهي كلمات آحاد، وما ذكر ﷺ كلمة منها إلاَّ مع قرائن وإشارات يزول معها إيهام التشبيه، وقد أدركها الحاضرون المشاهدون، فإذا نَقَلَ الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام.

وأعظم القرائن في زوال الإيهام المعرفةُ السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول الظواهر، ومن سبقت معرفته كانت تلك المعرفة ذخيرة له، راسخة في نفسه، مقارنة لكل ما يسمع، فينمحق معه الإيهام انمحاقًا لا شك فيه. ويعرف هذا بأمثلة، أنه ﷺ سمَّى الكعبة بيت الله تعالى، وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان، وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبةَ وطنُه ومثواه.

لكن العوام الذين اعتقدوا أنه في السماء، وأن استقراره على العرش ينمحق في حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه.

فإن قيل لهم: ما الذي دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه؟! لبادروا بأجمعهم وقالوا: هذا إنما يوهم في حق الصبيان والحمقى، أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه، فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه، بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكنه.

أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة أفادته علمًا قطعيًّا بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته أو مأواه، وأن هذا إنما يوهم في حق من لم يسبق إلى هذه العقيدة؟ فكذلك رسول الله ﷺ خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس، ونفي التشبيه، وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها، وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام، لا يبقى معه شك، وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد في تأويله، وتعين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ، ويليق بجلال الله تعالى... إلخ. اهـ[1].

قال الراغب في «مفردات القرآن»: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة، وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له، تعالى الله عن ذلك، وليس هو كما قال قوم: إنه الفلك الأعلى، والكرسي فلك الكواكب.

---

(١) إلجام العوام للغزالي رحمه الله تعالى ص ٢٤٠. ولعل أفضل مرجع للكلام على صفات الله تعالى من خلال النصوص والآثار كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي تعليق الكوثري وهو مطبوع ـ فعليك به تغنم

روى البيهقي في «الأسماء والصفات» بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ فأطرق مالك، وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء وصاحب بدعة، أخرجوه. فأُخرج الرجل.

وفي رواية يحيى بن يحيى... ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقال البغوي: أهل السُّنَّة يقولون: الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به ويَكِلُ العلم فيه إلى الله عزَّ وجلّ. وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل، وقد تقدم[1].

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]: يعني تعالى ذكره بقوله نفسه، يقول: والله القاهر فوق عباده، ويعني بقوله القاهر: المذلل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: فوقَ عباده، لأنه وصف نفسه بقهره إياهم، ومن صفة كل قاهرِ شيءٍ أن يكون مستعليًا عليه.

قال البيهقي: تكرر ذكر الوجه في القرآن والسنة الصحيحة. وهو في بعضها صفة ذات، كقوله: «إلاَّ رداء الكبرياء على وجهه» وهو في «صحيح البخاري» عن أبي موسى. وفي بعضها بمعنى مِنْ أجل، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. وفي بعضها بمعنى الرضا، كقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: ٢٠]. وليس المراد الجارحة جزمًا. اهـ. «فتح الباري» ١٢: ٣٨٩.

---

(١) إتحاف الكائنات، للإمام الجليل ناصر السُّنَّة وقامع البدعة، الشيخ محمود محمد خطاب السبكي ص ٤٥. قام بنشره الشيخ يوسف أمين خطاب، إمام أهل السُّنَّة.

وقال ابن حجر في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]: والمراد بالوجه: الذات. وتوجيهه: أنه عبر عن الجملة بأشهر ما فيها. ويحتمل أن يراد بالوجه: ما يعمل لأجل الله أو الجاه. وقيل: الاستثناء منقطع، والتقدير: لكن هو سبحانه لا يهلك، والشيء يساوي الموجودَ لغة وعرفًا: «الفتح» ١٢: ٤٠٢.

وقال ابن دقيق العيد: إن كان التأويل من المجاز البيّن الشائع فالحق سلوكه من غير توقف، أو من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه، وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدمه مسألة اجتهادية، والأمر ليس بالخطر بالنسبة للفريقين[١].

وقال نُعَيم بن حمَّاد: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر[٢].

وقال ابن المُنَيِّر في شرح حديث البخاري: (إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور ــ وأشار بيده إلى عينه): وقد سُئِلْتُ: هل يجوز لقارىء هذا الحديث، أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ؟ فأجبتُ وبالله التوفيق: إنه إن حضر عنده مَنْ يوافقه على معتقده، وكان يعتقد تنزيه الله تعالى عن صفات الحدوث، وأراد التأسِّي محضًا جاز، والأولى به التركُ خشيةَ أن يُدْخِل على من يراه شبهة التشبيه، تعالى الله عن ذلك[٣].

وقال ابن حجر في التعليق على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: وقال المجسمة: معناه الاستقرار. وهو قول فاسد؛

---

(١) إتحاف الكائنات، ص ٢٠٢.

(٢) إتحاف الكائنات، ص ٤٢.

(٣) الفتح ١٢/ ٣٩٠.

لأنَّ الاستقرار من صفات الأجسام، ويلزم منه الحلول والتناهي، وهو محال في حق الله تعالى ولائق بالمخلوقات.

● وقال الكوثري في تعليقه على «السيف الصقيل»: ولم يقع ذكر الجهة في حق الله في كتاب الله ولا في سنّة رسوله ولا في لفظ صحابي أو تابعي ولا في كلام أحد ممن تكلم في ذات الله وصفاته من الفرق سوى أقحاح المجسمة، وأتحدى من يدعي خلاف ذلك أن يسند هذا اللفظ إلى أحد منهم بسند صحيح فلن يجد إلى ذلك سبيلاً، فضلاً عن أن يتمكن من إسناده إلى الجمهور بأسانيد صحيحة.

● وما أحسن قول شارِحَي «الجوهرة» حول المتشابه من الصفات: والخلاصة أن من لم يصرف اللفظ المتشابه ــ آية كان أو حديثًا ــ عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال فقد ضل، ومن فسره تفسيرًا بعيدًا عن الحجة والبرهان، قائمًا على الزيغ والبهتان فقد ضل، كالباطنية، وكل هؤلاء يقال فيهم: إنهم يَتبعون ما تَشابه منه ابتغاء الفتنة. أما من يصرف المتشابه عن ظاهره بالحجة القاطعة، لا طلبًا للفتنة، بل منعًا لها، وتثبيتًا للناس، على المعروف من دينهم، وردًّا لهم إلى محكمات الكتاب القائمة، فأولئك هم هادون مهديون حقًّا، وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها وأئمتها وعلماؤها[1].

حِكْمَةُ الله تعالى

الحكمة: هي وضع الأمر موضعه، فهداية المهتدي وإثابته حكمة، وإضلال الضال وعقوبته حكمة.

---

(١) شرح جوهرة التوحيد، للشيخين محمد أديب الكيلاني وعبد الكريم التتان.
وانظر لزامًا: «دفع شبه التشبيه» لخطيب بغداد وواعظها أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي رحمه الله تعالى.

لقد وصف الله تعالى نفسه بالحكمة، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ولنذكر هنا بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان حكمة الله في خلقه الإنسان: فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية، من الذي دبرك بألطف التدبيرات، وأنت جنين في بطن أُمك، في موضع لا يدٌ تنالك، ولا بصر يدركك، ولا حيلة لك في التماس الغذاء، ولا في دفع الضرر؟!

فمن الذي أجرى عليك من دم الأم ما يغذوك، كما يغذو الماء النبات، وقلَب لك الدم لبنًا، ولم يزل يغذيك في أضيق المواضع، وأبعدها من حيلة التكسب والطلب، حتى إذا كمل خلقك، واستحكم، وقوي أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك على ملاقاة الضياء، وصَلُبتْ عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء، هاج الطلق بأمك، فأزعجك على الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء، فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط، ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والاشتمال حين وضعت نطفة، وبين هذا الدفع والطرد والإخراج، وكان مبتهجًا بحلمك، فأصبح يستغيث، ويعج إلى ربك من ثقلك؟!

فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت، ثم ضمه عليك حتى حفظت، وكملت، ثم فتح ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر، لم يخنقك ضيقه، ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه؟!

فلو تأمَّلت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه، لذهب بك العجب كل مذهب.

فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك، وأنت نطفة حتى لا تفسد

هناك؟! وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليمًا، إلى أن خرجت فريدًا وحيدًا ضعيفًا، لا قشرة ولا لباس، ولا متاع ولا مال، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم، فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها، تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها، ثم ساقه إلى تينك الخزانتين، ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له، فلا يزال واقفًا في طرقه ومجاريه، حتى تستوفي ما في الخزانة، فيجري وينساق إليك، فهو بئر لا تنقطع مادتها، ولا تفسد طرقها، يسوقها إليك في طرق لا يهتدي إليها الطُّوَّاف، ولا يسلكها الرجال. فمن رققه لك وصفاه، وأطاب مطعمه، وحسن لونه، وأحكم طبخه أعدل إحكام لا بالحار المؤذي، ولا بالبارد الرديء، ولا المر، ولا المالح ولا الكريه الرائحة؟! . . . ؟!(١).

جعل الله تعالى رضاب الفم عذبًا لا مرارة فيه، وجعل سبحانه ماء العين مرًّا لا حلاوة فيه، فلو جعل سبحانه رضاب الفم مالحًا وماء العين حلوًا، لما طابت لنا الطيبات، ولفسدت رائحة ماء العين فلا يدنو أحد من أحد.

وجعل الله تعالى الأوكسجين حارقًا، والهيدروجين خانقًا ولما جمع بينهما جعلهما ماءً، وجعل منه كل شيء حي.

قضى الله تعالى بحكمته في تكوُّن المطر أن يكون تبخرًا من الماء المالح يُفقد الماء ملوحته، ثم يصاعد البخار في السماء ويصاعد، حتى يبلغ درجة من البرودة تعيد البخار ماءً، ثم تجمع الرياح سحب الأمطار، وإذا أذن الله تعالى بنزول الأمطار في مكان أنزل منها حبات ناعمة دقيقة متفرقة على أوقات وأماكن متعددة، ولو نزل مطر السنة في يوم، أو نزل مجموع حباته في قرية لأهلك

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٦. وحبذا قراءة الكتاب كله، فقد أورد ص ٣٠٤ من الحكم المختلفة الدالة على حكمة الله تعالى وتمام فضله وإحسانه.

الحرث والنسل، لكنه لطف الله تعالى القائل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

● تبلغ سرعة الأرض في دورتها اليومية حول محورها (١٠٠٠) ميل في الساعة عند خط الاستواء، فلو كانت سرعة دورتها (١٠٠) ميل في الساعة لكان طول الليل والنهار عشرة أضعاف طولهما الآن، ولاستطاعت حرارة الشمس أن تحرق نباتنا في النهار الطويل، وكذلك استطاع الليل لغياب الشمس أن يجمد نباتنا الذي ربما بقي حيًّا بعد وهج الشمس الطويل: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤][1].

ما يَهدِم الإيمان بالله تعالى

● **الإيمان**: هو التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما عُلم من الدين بالضرورة. أي علم أنه من الدين بالدليل القطعي الواضح والذي ثبت به بداهة ما يقرره من أحكام.

● والكفر ــ والردة كفر ــ هو: إنكار جميع أو بعض ما جاء به رسول الله ﷺ على الصفة التي ذكرتُ.

وكل ما يؤدي إلى الكفر كفر، سواء كان بالاعتقاد، أو القول، أو العمل.

● لا نكفِّر أحدًا من أهل القبلة بفعل ذنب، إلاَّ باعتقاد باطل، أو فعل ما يدل على الكفر[2].

● يهدم الإيمان بالله تعالى الارتداد عن الإيمان به سبحانه، والخروج عليه مع العلم والاختبار دون القهر والإكراه.

---

(١) آيات الخالق الكونية والنفسية، للأستاذ رشدي العابري.

(٢) يأتي بهذا زيادة بإذن الله تعالى.

ويتحقق الارتداد عن الإيمان بالله تعالى والخروج عن الإسلام بأحد أمور ثلاثة: بالاعتقاد، والقول، والعمل.

١ ـ الارتداد بالاعتقاد:

(أ) أن ينكر ـ معاذ الله تعالى ـ وجود الله سبحانه، أو يشرك به غيره من زوجة أو ولد، أو معاون له مكافىء له سبحانه، أو ينكر صفة من صفاته سبحانه، أو اسمًا من أسمائه ثابت بالتواتر، أو يرى أن مخلوقًا له صفات الخالق سبحانه من الإحياء والإماتة، والقدرة على فعل ما يريد، والغنى المطلق، والبقاء، وأمثالها.

● أن ينكر كون القرآن الكريم من عند الله تعالى، أو يرى أن القرآن الكريم قد أتاه الباطل، والخطأ، أو يأتيه، أو يرى عدم التزام الصدق في بعض قصص القرآن الكريم وأخباره بعد قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١]، أو اتهام السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها في عرضها، وقد برأها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]، أو يزعم أن القرآن الذي بين أيدي المسلمين ليس هو كل الذي أنزل على رسولنا محمد ﷺ.

● أن يعتقد في الله تعالى صفة من صفات النقص، كالظلم، والمحاباة، وجهل شيء جرى أو يجري في خلقه ومن خلقه، والعجز والتعب، والحاجة إلى شيء.

أو يرى أن الله تعالى هو هذا الكون كله، وليس ذاتًا موصوفة بصفات الكمال، أو يزعم أنه غيب، سبحانه، أو أنه يحل في جسم أحد من خلقه، أو يتحد معه، معاذ الله.

(ب) إنكار وجود الملائكة الكرام، أو نسبتهم إلى الأنوثة، وأنهم بنات

الله ــ تعالى اللَّهُ أن يتخذ صاحبة أو ولدًا وهو الذي خلق كل شيء ــ ، أو وَصْفُهم بأنهم قوى الطبيعة، أو بُغْضُهم أو بُغْض واحد منهم، أو اعتقاد أنَّ جبريل عليه السلام خان الأمانة في تبليغ الوحي إلى رسولنا محمد ﷺ بعد قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ــ ١٩٤].

(ج) إنكار واحد من الكتب السماوية وهي التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن، وصحف سيدنا إبراهيم، وصحف سيدنا موسى عليهما وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، واعتقاد أن القرآن الكريم قد عرض له التبديل والتحريف، كما وقع في التوراة والإنجيل، فضلاً عن الضياع كما وقع في الزبور، وصحف إبراهيم وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

(د) إنكار النبوّة ــ معاذ الله ــ ، أو إنكار نبوة أحد ممن ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم، أو إنكار نبوة أي أحد غيرهم، بعد قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، أو بُغْض نبي من الأنبياء، أو انتقاصه، معاذ الله، ووصفه بما برأه الله تعالى منه.

وإنكار عموم رسالة نبينا محمد ﷺ وشمولها، وختمها للرسالات، وختم الله به النبوات، وإنكار المعجزات المتواترة للأنبياء ونبيّنا عليه وعليهم الصلاة والسلام، أو تأويلها بما يخرجها عن حقيقتها دون دليل، أو إنكار ما أخبر به رسول الله ﷺ مما هو متواتر أو ثبت ذلك في القرآن الكريم، كالإسراء والمعراج، وظهور الدابة، ونزول عيسى عليه السلام من السماء آخر الزمان.

(هـ) إنكار الحياة الآخرة، وأن الله تعالى يبدل الأرض غير الأرض، وحشْرِ الأجساد والبعث والحساب، وإنكار خلود الجنة على أهلها، والنار على الذين هم أهلها.

واعتقاد أن نعيم الجنَّات ولذاتها تمثيل وليس واقعًا، وأن عذاب النار وشدتها تمثيل كذلك، معاذ الله.

(و) إنكار القضاء والقدر، وظن أن الله تعالى لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وأن الأمر أُنُف جديد مما يفعله العباد، وليس مما قدر الله وقضى منذ الأزل، بعد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله ﷺ كما جاء في الصحيح: «اعملوا فكل مُيَسَّر لما خُلِقَ له»[1].

(ز) استحلال ما ثبت حرمته قطعًا من الزنى، واللواطة، والربا، والقمار، والخمر، والرشوة، والظلم، وقتل المسلم بغير الحق الذي ورد في الكتاب والسُّنَّة.

واستحلال أخذ أموال الناس بالباطل، وتقسيم مواريث الأموال على غير ما حكم الله تعالى به بعد قوله تعالى ــ في القرابة الواحدة كالبنوة والأخوة ــ : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

ــ تمنِّي الكفر لنفسه، أو محبته لغيره ورضاه به، معاذ الله.

٢ ــ الارتداد بالقول:

تحديثه الناس: أو كتابته أو إشارته: بأي معنى من معاني كفر الاعتقاد، كأن يقول هو لا يعتقد بحشر الأجساد في يوم لا ريب يه، أو يسخر باسم من أسماء الله تعالى، أو يصفه بما لا يليق به سبحانه من الصفات كالظلم، والمحاباة، أو محبة الظلم ومحبة الظالمين والكافرين.

ومثله: النطقُ بكلمة الكفر استخفافًا بالإسلام وقدره، أو قوله هو مع الناس فإن كانوا كفارًا فهو مثلهم، وإن كانوا مسلمين فهو مثلهم.

---

(١) رواه البخاري.

إذا أشهد الله تعالى على أمر هو فيه كاذب وهو يعلم ذلك، أو افترى على الله تعالى ما لم يقله وهو يعلم ذلك، أو على رسول الله ﷺ وهو يعلم ذلك أيضًا.

ومثله الاستخفافُ بذكر الله تعالى وعبادته، وقوله عنها إنها لا تسمن ولا تغني من جوع، أو زعم أنه لا يضر مع الإيمان المعصية، أو جاهر بالمعصية من ترك الصلاة والصيام على وجه التحدي والمعاداة للمسلمين، أو فضّل الكفر على الإسلام، أو قال: الكفار خير من المسلمين، إن أراد أنّ دينهم خير من الإسلام.

ومثله إذا قال ــ معاذ الله ــ : إن الإسلام لا يصلح للحياة، سواء قال ذلك على زعم أنه لا يناسب زمانه، أو أنه ناقص لا يفي بحاجات الناس، أو أن أحكامه لا تُصلح الناس بعد أن تفاقمت فيهم الشرور، وفسدت الأخلاق وخربت الضمائر.

ومثله إذا قال: إنه يؤمن ببعض الإسلام دون بعض، فهو يؤمن بأنه دين الله تعالى وأنه يجب العيش به من حيث الإيمان بالله تعالى وطاعته، وبر الوالدين وصلة الأرحام، ولكن لا يلزمه أن يقبل بنظام الزكاة، ونظام البيوع والمعاملات، وموالاة المسلمين ومعاداة الكافرين، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وأهل دينه على قدر الإمكان، لأن مثل هذه الأحكام تخالف ما عليه الكافرون أهلُ التقدم والمدنية، الذين هم قدوة في شؤون الدنيا، بعد قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكذلك الاستخفافُ بكتاب الله تعالى، أو حكم من أحكامه، وإهانةُ كتاب الله تعالى في آياته وسوره وإنكار شيء منه، وإنكارُ السنّة الشريفة أصلاً، وردّ ما استفاض منها دون علم من دليل معارض أو ناسخ بعد قوله ﷺ مما رواه أبو داود وغيره «. . . ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»، وما أوتيه ﷺ وَحْي، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ــ ٤].

وإنكار شيء من الفرائض الثابتة، أو الاستهزاء بها، كأن يقول مستهزئًا بالمصلين: ما يفعل هؤلاء؟ أو يقول في الصائمين: لماذا يصوم هؤلاء؟ أو يقول: هو كافر، أو هو يشك في كُفْر من كَفَر بالإسلام، وأن الله تعالى يجمع المسلمين والكافرين بالإسلام في الجنة جميعًا، معاذ الله.

وإنكار حجاب المرأة، ووصفه بما يشعر بتحقير شأنه أو الاستهزاء به، فضلاً عن نزع الحجاب ومحاربته، ومحاربة أهله.

٣ ــ الارتداد بالعمل:

أن يأتي بعمل يأتي به الكافر على سبيل العبادة، يفعل ذلك قصدًا، دون ضرورة أو عذر، كالسجود للصنم، والتصليب ووضعه على الصدر، والصلاة دون وضوء، وإلى غير جهة القبلة قصدًا دون ضرورة وعذر.

ومثله الصلاة بصلاة اليهود والنصارى محبة لهم وتوددًا إليهم فضلاً عن عبادة الأوثان، وموالاة الكافرين ضد المسلمين والتودد إليهم والرضا بحالهم، بعد قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

والجلوس مع الذين يستهزئون بالإسلام أو حكم من أحكامه، ومشاركتهم في ذلك، والرضا به ــ معاذ الله ــ بعد قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨].

ومثله الزيادة على كتاب الله تعالى أو النقص قصدًا، وعن علم، أو تمزيق المصحف وإلقاؤه أرضًا، أو في القاذورات على حالة التحقير والغضب منه ومن أهله، أو هدم المسجد، وتنجيسه كذلك دون عذر أو ضرورة.

قال الحُمَيدي: كنت بمصر، فحدث محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى بحديث عن رسول الله ﷺ، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أتأخذ بهذا؟ فقال: أرأيتني خرجت من كنيسة، ترى عليّ زنارًا حتى لا أقول به[1]؟!

الارتداد ــ وآثاره:

الارتداد: هو الرجوع عن الإسلام، والخروج على المقطوع من أحكامه سواء كان بالاعتقاد، أو بالقول، أو بالعمل ــ كما ذكرنا ــ من عاقل، بالغ مختار.

حكم المرتد: قال الفقهاء: يُستتاب المرتد إلى ثلاثة أيام. تُكشف له فيها الشبهة التي دفعت المرتد إلى الردة، ويبين له عوارها وبطلانها فيعود إلى الدين، أو ينصف إذا كان قد ظُلِمَ لإسلامه، أو يؤمن إذا خاف لإسلامه، وغير ذلك، فإن اطمأن قلبه وعاد إلى الإسلام ونطق بالشهادتين، وأعلن بطلان ما كان عليه من شبهة، فبها ونعمت، فقد كفي شرّ الكفر والإكفار، والحمد لله.

ولكن إذا تبيَّن بعد ثلاثة أيام من المناقشة ــ وتبيان حقية الإسلام، وإنصافه من الظلم، إن كان وقع عليه ظلم بإسلامه، وغير ذلك ــ إذا تبيَّن أنه يُؤْثر الكفر بالإسلام لمرض في قلبه، أو لدنيا يعيش لها، حينئذ يحكم عليه

---

(١) «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة»، للسيوطي رحمه الله تعالى، ص ٧٦.

قضاء الإسلام بالقتل، فيبوء بخسارة الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

آثـار الردة:

١ ــ قتل المرتد من قبل الدولة جزاء وفاقًا على اختياره الكفر على الإيمان.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِل دمُ امرىءٍ مسلم يشهد أَن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة»[1].

٢ ــ تُعدّ زوجته مفارقة له بمجرد ردته وعلمها بذلك، فيحرم عليها أن تأذن له بقربانها لثبوت الحرمة، إذ لا يصح نكاح الكافر للمسلمة بحال من الأحوال ابتداءً أو بقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١]. فإن عاد إلى الإسلام عادت إليه دون رجعة أو شهود.

٣ ــ يزول ملك المرتد لأمواله زوالاً موقوفًا إلى أن يتبين حاله، لأن حاله متردد بين أن يعود إلى الإسلام فيعود ماله إليه ويعصم من المصادرة، وبين أن يثبت على ردته فيقتل. فإن عاد إلى الإسلام عادت أمواله على أحواله. وإن مات على ردته، أو قتل بسبب ردته انتقل ماله عنه، لزوال ملكه قطعًا.

٤ ــ إذا مات المرتد أو قتل بسبب ردته قسم ما جمعه من المال قبل ردته على ورثته من المسلمين، وما جمعه بعد ردته، جعل غنيمة وفيئًا يوضع في بيت مال المسلمين، أعني خزانة الدولة، ليصرف على المصالح العامة.

---

(١) رواه البخاري وغيره.

٥ ــ إذا هرب المرتد ولحق بدار الحرب، وحكم القاضي بردته ولحاقه بدار الحرب عُدَّ ذلك موتًا له، فتعتد امرأته، ويفرق ماله الذي ملكه قبل ردته ــ كما ذكرنا ــ على ورثته.

٦ ــ إذا مات المرتد، وقتل، أو لحق بدار الحرب وحكم القاضي بردته ولحاقه، نظر فإن كان عليه ديون قضيت ديونه قبل قسمته بين ورثته، كما هو الشأن في الميت من المسلمين، حفاظًا على حقوق العباد.

٧ ــ تعدّ معاملات المرتد من البيع والشراء وغيرهما من العقود موقوفةً إلى أن يتبين حاله، فإن عاد إلى الإسلام نفذت معاملاته وأمضيت. وإلاَّ ــ بأن مات على ردته، أو قتل بسببها، أو هرب فَقُضِيَ بردته، ولحاقه دار الحرب ــ بطلتْ عقوده كلها، لأن دمه مهدور، وذلك يوجب نقصًا في الأهلية.

٨ ــ لا تقتل المرأة بسبب ارتدادها؛ لنهيه ﷺ عن قتل النساء، ولكن تحبس حتى تسلم أو تموت في حبسها.

٩ ــ إذا عاد المرتد إلى الإسلام، ثم ارتد ثانيًا إلى الكفر معاذ الله، فالأمر كما سبق، يعرض عليه الإسلام، ويناقش في أسباب ردته، ولكنه في هذه الحالة يضرب ويحبس حتى تظهر عليه التوبة، فإن تاب وعاد إلى الإسلام، وإلا قتل على ردته كما سبق.

١٠ ــ إذا مات المرتد أو قُتل لا يعامل كما يعامل موتى المسلمين، فلا يغسل، ولا يكفن كما يُفعل بالمسلم، ولا يُصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، لأنه ليس منهم.

قال في «الهداية»: وكيفية توبة المرتد أن يتبرأ من الأديان كلها سوى الإسلام، ولو تبرأ عما انتقل إليه من دين آخر، كفاه؛ لحصول المقصود[1].

---

(١) عن القدوري وشرح اللباب عليه: ٣/ ٢٧٥ وما بعد.

شبهة:

قد يقال: إنَّ الله تعالى قال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلماذا يُقتل من كان مسلمًا إذا ارتد عنه، أليس هذا إكراهًا على الدين؟.

كشفها:

(أ) إن الذي يرتد عن الدين الخاتم للأديان، والذي أتمه الله تعالى وأكمله ورضيه لعباده دينًا إلى يوم القيامة، قد وقع في أخطر الأمراض وأخبثها.

لذا قرَّر الإسلام معالجة هذا المرض بما يزيله بإزالة أسبابه؛ فإذا عظم هذا المرض حتى أكل قلبَ صاحبه، وحرمه الخيرة الطيبة له، فلا بد من قتله ودفع أذاه عن المجتمع، كما يُفعل بالعضو المصاب بمرض الأكلة ــ معاذ الله ــ، إنه يبتر، ليعيش باقي الجسم في سلامة إلى حين.

(ب) لو ترك هذا المرتد على ردته، فلربما يكون سببًا لنقل عدواه من مرضه إلى ضعاف النفوس، ضعاف الهممِ، والجهلةِ، أو بعض الفقراء، فيهلك الآخرين. والعدوى تحصر، ويمنع من نشرها في المجتمع كما هو معروف، حتى يُقضى عليها. وأي داء أدوى من الردة والإلحاد بعد الإسلام والتوحيد؟!.

(ج) إن خالق الإنسان ومنزل الإسلام هو الذي قضى بقتل المرتد على التفصيل الذي ذُكر، ولا شك أن الخير والحكمة والمصلحة التامة يتحقق في هذا الحكم الشرعي؛ لأنه حكم من قال: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]، اللَّـهُمَّ بلى.

أما آية: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصيني، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلمًا، فقال

للنبيّ ﷺ: ألا أستكرِهُهُما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك[1].

ومن هنا قال العلماء: إن أهل الكتاب من العرب لا يُكْرَهون على الإسلام، بل يُقَرُّون على دينهم، وتُرعى حقوقهم، وتحمى دماؤهم وأموالهم وأعراضهم ما وفوا بالعهد وأعطوا الذمة وما وضع عليهم من الجزية.

وكذا شأن أهل الأوثان والمجوس من غير العرب، فضلاً عن أهل الكتاب منهم.

أما مشركو العرب فلا يُقَرُّون على شركهم بحال، فإما أن يُقتلوا، وإما أن يسلموا، فإنه لمن السفه أن يُترك العرب الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ والذين يعرفون نسبه وحياته، وأنزل القرآن الكريم على لغتهم، وكانت نواةُ الإسلام الأُولى منهم، وبان لهم بُطْلُ عبادة الأوثان والخضوع لحجارة لا تجلب لنفسها نفعًا ولا تدفع ضرًّا، أن يُتركوا وعبادة الأوثان، وهم يعلمون حقًّا، ويدركون واقعًا وحسًّا أنَّ الشرك ظلم عظيم، وسفه من الرأي ومجانبة للعقل والفكر السليم.

قال الطحاوي رحمه الله تعالى: تؤخذ الجزية من أهل الكتاب ومن جميع كفار العجم، ولا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف. وعلى هذا حُمل حديث رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله، فمن قال: لا إله إلاَّ الله؛ عصم منِّي ماله ونفسه إلاَّ بحقه، وحسابه على الله»[2].

لا نكفر المسلم بذنب:

معتقَد أهل السُّنَّة والجماعة عدمُ تكفيرِ المسلم بفعل الذنب أيًّا كان ذلك الذنب، ولو القتل أو الانتحار، أو ترك العبادات والصلاة، إلا أن يفعل الذنب

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٣٢.

(٢) رواه البخاري.

مستحلاً له، أو يَترك الفرض مستهينًا به، أو يفعل فعلاً يدل على الكفر، فيكفر بذلك معاذ الله.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى في «الفقه الأكبر»؛ ولا نكفر مسلمًا بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلّها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان. ونسميه مؤمنًا حقيقة، ويجوز أن يكون مؤمنًا فاسقًا غير كافر. . . . ولانقول: إن المؤمن لا تضره الذنوب وإنه لا يدخل النار، ولا إنه يخلد فيها وإن كان فاسقًا بعد أن يخرج من الدنيا مؤمنًا[1].

وقد رأيت لابن قدامة الحنبلي في «المغني» كلامًا جيِّدًا في هذا الباب أنقله على طوله؛ لأنه جمع فأوعى، قال رحمه الله تعالى:

حكم تارك الصلاة كسلاً: الرواية الأولى عند أحمد: يقتل كفرًا. والرواية الثانية يُقتل حدًّا مع الحكم بإسلامه كالزاني المحصن. وهذا اختيار أبي عبد الله بن بطة، وأنكر قول من قال: أنه يكفر، وذهب أن المذهب على هذا، لم يجد في المذهب خلافًا فيه.

وهذا قول أكثر الفقهاء، وقول أبي حنيفة، ومالك، والشافعي.

وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى معهم من الإسلام إلا قول لا إله إلاَّ الله. فقيل له: وما ينفعهم؟ قال: ينجيهم من النار، لا أبا لك».

وعن والان قال: انتهيت إلى داري فوجدت شاة مذبوحة، فقلت: من ذبحها؟ قالوا: غلامك، قلت: والله إن غلامي لا يصلي، فقالت النسوة: نحن علَّمناه فسمى. فرجعت إلى ابن مسعود فسألته عن ذلك فأمرني بأكلها.

---

(١) انظر: منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، ص ٢١٠ ــ ٢٣٠، لراقمه، دار البشائر الإسلامية.

والدليل على هذا قول النبيّ ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال لا إلـه إلاَّ الله يبتغي بذلك وجه الله».

وعن أبـي ذرٍّ رضي الله عنه قال: أتيت النبـيّ ﷺ فقال: «ما من عبد قال لا إلـه إلاَّ الله ثمَّ مات على ذلك؛ إلاَّ دخل الجنة».

وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إلـه إلاَّ الله وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إلـه إلاَّ الله ومن كان في قلبه من الخير ما يزن بُرّة»[1]. ومثلها كثير.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خمس صلوات كتبهن الله على العبد في اليوم والليلة، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة». ولو كان كافرًا لم يدخل في المشيئة.

قال الخلاَّل في «جامعه»: ثنا يحيى، ثنا عبد الوهاب، ثنا هشام بن حسان، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبـي شميلة: أنَّ النبـيّ ﷺ خرج إلى قباء فاستقبله رهط من الأنصار يحملون جنازة على باب، فقال النبـيّ ﷺ: «ما هذا؟»، قالوا: مملوك لآل فلان، كان من أمره. قال: «أكان يشهد أن لا إلـه إلاَّ الله؟»، قالوا: نعم، لكنه كان وكان. فقال: «أما كان يصلي؟»، قالوا: قد كان يصلي ويدع. فقال لهم:

---

(١) متفق على هذه الأحاديث كلها.

«ارجعوا فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه وادفنوه، والذي نفسي بيده لقد كادت الملائكة تحول بيني وبينه».

وروى بإسناده عن عطاء، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «صلوا على من قال لا إله إلَّا الله».

ولأن ذلك إجماعُ المسلمين؛ فإننا لا نعلم في عصر من الأعصار أحدًا من تاركي الصلاة تُرك تغسيله والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين، ولا مُنع ورثته ميراثه، ولا منع هو ميراث مورثه، ولا فُرِّق بين زوجين لترك الصلاة من أحدهما لكثرة تاركي الصلاة.

ولو كان كافرًا لثبتت هذه الأحكام كلها، ولا نعلم بين المسلمين خلافًا في أن تارك الصلاة يجب عليه قضاؤها، ولو كان مرتدًا لم يجب عليه قضاء صلاة ولا صيام.

وأما الأحاديث المتقدمة: التي تدل بظاهرها على كفر تارك الصلاة: فهي على سبيل التغليظ، والتشبيه له بالكفار، لا على الحقيقة، كقوله عليه السلام: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وقوله: «كفرٌ بالله تبرؤ من النسب، وإن دقّ»، وقوله: «من قال لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما»، وقوله: «من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد»، وقال: «من قال: مطرنا بنوء الكواكب، فهو كافر بالله مؤمن بالكواكب»، وقوله: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وقوله: «شارب الخمر كعابد وثن».

وأشباه هذا مما أريد به التشديد في الوعيد، وهو أصوب القولين والله أعلم. اهـ[1].

قلت: لقد كان أول من خرج على وحدة كلمة المسلمين قوم سُمُّوا

---

(١) المغني، لابن قدامة الحنبلي ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٧.

بالخوارج، لا يعاب عليهم في صلاة، ولا صيام، ولا قراءة قرآن، وقيام ليل، بل هم في ذلك سابقون لكثير من المسلمين. لكن عيب عليهم، ويعاب: سوءُ ظنهم بالمسلمين إلى حدّ حملهم على تكفير عامة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، بظواهر من النصوص فسرتها الأهواء، والاغترارُ بالنفوس وسوءُ الظن بالناس، حتى أنبأ عنهم رسولُ الله ﷺ وعن خروجهم، فقال: «. . . يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»[1].

وليتق الله تعالى أقوامٌ في عصرنا الحاضر، يُكَفِّرون المسلمين، ويضلِّلُونهم، لمخالفتهم آراءهم، وظواهر ما عندهم من نصوص، بآراء لأولئك أيضًا ونصوص، حتى يقول قائلهم: إن الأفغان أشد خطرًا من الشيوعيين، لأن الأفغان أحناف وهم لا يقرؤون خلف الإمام في الصلاة. ويقول آخر: إنه يشك في إيمان من لا يرفع يديه مع تكبيرات الانتقال، فضلاً عن فساد صلاته. ويقول ثالث: إنَّ مؤلِّف «في ظلال القرآن» السيِّد قطب رحمه الله تعالى كافر؛ لأنه ــ في زعمه الأهوج ــ يقول بوحدة الوجود، معاذ الله. ويقول رابع: إن من لا يعتقد عقيدة فلان من العلماء مبتدع، ضال، جهمي، معطل. ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

يا قوم! لقد اختلف أصحابُ رسول الله ﷺ فيما بينهم في أمور ومسائل، ولم يحل ذلك بينهم وبين التحاب، والتناصر، وجهاد الكافرين معًا، بل إن عليًّا رضي الله تعالى عنه لم يُكَفِّر من قاتله من الخوارج وكفَّره، بل قال فيهم: من الكفر فَرُّوا.

وما أحسن كلمة الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى في هذا الباب: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

---

(١) رواه البخاري وغيره.

* إنَّ أمام المسلمين جميعًا عدوُّ المسلمين جميعًا؛ يكيدهم في قلوبهم، وبيوتهم وثقافتهم، وأموالهم في عقر دارهم، فضلاً عن حدود بلادهم حتى يقضي عليهم أو يخرجهم من دينهم إن استطاع..!.

فليتحدوا، وليتآخوا، وليتعاونوا، وليتناصروا، وليجاهدوا عدوَّ الله تعالى وعدوَّ المسلمين معًا معًا، ولا عليهم ــ بعد ذلك ــ أن لا يحكموا على بعضهم بآرائهم، فلن يُسألوا في قبورهم عن آرائهم في الناس، ولكن سيُسألون عن أعمالهم وسلوكهم مع الله تعالى ومع الناس. ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

وفي الحديث الصحيح: «... كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[1].

(١) رواه البخاري وغيره.

obeikandl.com

الفصل الثالث
الشهادة للنبي محمد ﷺ بالرسالة

هي مشاهدة القلب والعقل وإقرار اللسان عن رضًا واختيار بأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هو عبد الله ورسوله، أرسله الله تعالى إلى الخلق بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وأن ما يدعو إليه هذا الرسول الكريم، وما يقوله، وما يفعله.. ما يقبله وما يرده ــ في مجال التشريع ــ، هو دين الله يبلغه إلى الناس وحقٌّ على الناس اتباعه[1].

قال الشيخ سعيد: ولا يقوم الإنسان بلوازم لا إله إلاَّ الله إلاَّ إذا عرف رسوله، وتعرف بواسطة رسوله على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتحقيق لوازم هذه الوحدانية، وبدون ذلك سيبقى الإنسان في متاهات الضلال الكبير البعيد الذي لا يعرف معه سيرًا ينسجم مع وضعه، ويصل به إلى الغاية مبتدئًا من بداياتها الصحيحة، لذلك كانت معرفة رسول الله ﷺ تعدل معرفة الله، إذ لا يقوم أحد بحق الله إلاَّ إذا عرف رسوله، لذلك حكم الله تعالى بكفر من لم يؤمن بالرسول الذي يرسله إلى الناس، بعد أن أقام الحجة على الناس برسالته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ

(١) إلاَّ ما هو خصوصية له ﷺ.

﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١][1].

الرسول: رجلٌ حرٌّ من بني آدم، أوحى الله تعالى إليه بدين، وأمره بتبليغه[2]، فرسولنا محمد ﷺ أوحى الله تعالى إليه بالإسلام الذي هو القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وأمره بتبليغه إلى الناس، وقد فعل ﷺ ذلك، فأدى الرسالة، وبلّغ الأمانة، دعا إلى الله تعالى، حتى أتاه اليقين، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى، الرفيق الأعلى»، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

---

(١) الإسلام ١/ ٢٦.

(٢) عرف الشيخ محمد عبده الوحي بأنه: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى. رسالة التوحيد له، ص ١٤٨. وتابعه في تعريفه الشيخ رشيد رضا دون تعقيب.
قال الشيخ عبد الفتاح إبراهيم سلامة: ونحن نأخذ على تعريف الشيخ ما أخذه غيرنا ونضيف: بأنه:
١ ــ ساق تعريفًا غير موضوعي باسم الموضوعية.
٢ ــ ساق تعريفًا لا تشهد له نصوص القرآن والسنة، ولا وقائع الوحي.
٣ ــ فرق كبير بين الوحي الذي هو: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه، وبين أن يكون الوحي عرفانًا يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله، ففي هذا التعريف الأخير إيهام وغموض، وفقدان الإنسان بين أوله وآخره.
٤ ــ استعمال كلمة (الشخص) في غير موضعها، لأن النبي ليس كأيّ شخص.
٥ ــ وصفه الإلهام بأنه ما تستقيه النفس وتنساق إلى ما يطلب منها من غير شعور منها من أين أتى، فإنه لا يقين في الإلهام، كما هو معروف وقد يلتبس على الإنسان الإلهام بوساوس الشيطان.
٦ ــ شبه وجدان الإلهام بغرائز الجوع والعطش حين قال فيه: (وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور)، فإنه شتان ما بين الإلهام والغرائز. عن مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٤٥، ص ٤٢.

دلائل كونه ﷺ رسول الله تعالى حقًّا

محمد ﷺ رسول الله حقًّا بدلالة:

١ ــ حياته الكريمة النقيّة:

لقد عاش ﷺ حياة كريمة نقيّة منذ طفولته، إلى أن نزل عليه الوحي بالإسلام، ثم إلى أن التحق بالرفيقِ الأعلى، فلم يُعرف عنه ﷺ عبادةٌ لصنم، أو تقديمُ قربان عنده، ولا عُهِدَ عنه سرقة، أو كذب، أو عدوان وقتل، ولا شُرْبُ خمرٍ أو لعبُ قمار، ولا زنًى ولا تشبيبٌ بامرأة. ولا اتُّهِمَ بشيء من ذلك، حتى من أشد الناس عليه عداوة، مما يدل على اتفاق معاصريه وعارفيه جميعًا على خُلُقه العظيم ﷺ قبل نبوته، وذلك فضل الله تعالى يربي من أعده للنبوة والرسالة تربية مُثلى ليكون قدوة صالحة على الدوام، قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩].

وقال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، وقد قال له: يا رسول الله، لقد طفت القبائل كلها فلم أر آدب منك، فمن أدَّبك؟ قال: «أدَّبني ربي فأَحْسَنَ تأديبي»[1].

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هَممتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يَهُمُّون به إلاَّ ليلتين، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما، قلت ليلةً لبعض فتيان مكة ونحن في رعاءِ غنمِ أهلها، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، أسمر فيها، كما يسمر الفتيان، فقال: بلى. قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر،

---

(١) رواه العسكري. وقال السيوطي: معناه صحيح، ولكن لم يأت من طريق صحيح. انظر: كشف الخفاء ١/ ٧٠.

وضرب الله على أُذني، فوالله ما أيقظني إلاَّ مسّ الشمس فرجعت إلى صاحبي، فقال: ماذا فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت». وذكر أنه حصل له ذلك مرة أخرى، فتم له مثل الذي تمّ في المرة الأولى. ثم قال: «فوالله ما هممت ولا عُدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله تعالى بنبوته»[1].

● روى الحافظ البيهقي بسنده إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: كان صنم من نحاس يقال له: إساف ونائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا[2]، فطاف رسول الله ﷺ، وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسَّه». قال زيد: فطفت، وقلت في نفسي: لأمسَّنَّه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنه»، قال البيهقي: زاد فيه عن محمد بن عمر بإسناده، قال زيد: فوالذي أكرمه الله وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا قط حتى أكرمه الله تعالى ــ يعني بالنبوة ــ.

قال ابن كثير في «تاريخه»: وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها، لما يريد من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جِوارًا، وأعظمهم حِلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم عن الفحش والأذى؛ ما رؤي ملاحيًا، ولا مماريًا أحدًا حتى سمَّاه قومه: (الأمين)؛ لما جمع الله تعالى فيه من الأمور الصالحة[3].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٢٨٨، وقال بعد ذكره لها: هذا حديث غريب جدًا، وقد يكون عن علي نفسه. وذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر. انظر رسالة: بشائر نور وإرهاصات نبوَّة، للمؤلف.

(٢) حول الصفا والمروة.

(٣) البداية والنهاية.

٢ ــ صفاته الخُلُقية ومزاياه النفسية:

لقد تميَّز ﷺ بصفات خلقية ومزايا نفسية من الصدق، والعدل، والعقل العظيم، والشجاعة، والرحمة، والعفو عند المقدرة، والثبات على المبدأ، وقوة الحجة، والخلق العظيم في كل شيء، برتبة ومزية لم تُعرف في سابق زمانه لأحد، ولن تُعرف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأحد.

والواقع والتاريخ شاهد ــ وأي شاهد ــ على تلك المزايا والأخلاق العظيمة له ﷺ، وكثيرًا ما نطق بذلك الكفار الأعداء مع المؤمنين، فكان مَثلهم كمثل من قال:

ما إن مدحت محمدًا بقصيدتي ... لكن مدحتُ قصيدتي بمحمدِ

ونحب أن نزين صفحات هذا الكتاب بإيراد نماذج من صفاته الخُلُقية، ومزاياه النفسية ﷺ، رجاء أن ننتَظِم في سلك مدَّاحي من مدحه ربه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وأن ينتفع بها المسلمون فننُظم في سلك: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا...»[(١)].

(أ) صدقه ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، ــ لبطون قريش ــ حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج، يرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريشُ، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي يريد أن يُغِير عليكم أفكنتم

---

(١) رواه مسلم: علم ١٦؛ والترمذي: علم ١٥.

مصدقيَّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1] [المسد: ١].

● وقال هرقل لأبي سفيان قبل أن يسلم وقد أتى هرقلَ كتابُ رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلتُ: لا... وقال هرقل: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا. فقد عرفتُ أنه لم يكن ليدعَ الكذبَ على الناس ويكذب على الله تعالى...[2].

(ب) عدله ﷺ:

عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنهما قالت: كان على رسول الله ﷺ وَسَقٌ من تمر لرجلٍ من بني ساعدة، فأتاه يقتضيه، فأمر رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار أن يقضيه، فقضاه تمرًا دون تمره، فأبى أن يقبله، فقال: أتردّ على رسول الله ﷺ فقال: نعم، ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ، فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه، ثم قال: «صدق، ومن أحق بالعدل منِّي، لا قدَّس الله أمة لا يأخذ ضعيفُها حَقَّه من شديدها ولا يتعتعه»، ثم قال: «يا خولة عديه، وأقضيه، فإنه ليس من غريم يخرج من غريمه راضيًا إلاَّ صَلَّتْ عليه دواب الأرض ونون البحار، وليس من عبد يلوي غريمَه وهو يجد إلاَّ كتب الله عليه في كل يوم وليلة إثمًا»[3].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر محاورة هرقل لأبي سفيان، وهي قطعة من شهادات الأعداء لرسول الله ﷺ بالنبوة، وهي في البخاري ومسلم.

(٣) الطبراني، ورواه أحمد بنحوه عن عائشة رضي الله تعالى عنها بإسناد جيد قوي، كذا في الترغيب ٣/ ٣٧٠.

● وحين شعر ﷺ بدنوّ أجله، فانهزمت العافية في بدنه الجَلد أمام سطوة المرض العاتي ــ كما يقول الغزالي ــ، وقف ﷺ على منبره يخطب الناس يقول فيهم: «أما بعد، أيُّها الناس، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلـه إلاَّ هو، فمن كنت جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقدْ منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إليَّ من أخذ مني حقًّا إن كان له أو أحلّني منه، فلقيتُ الله وأنا طيب النفس». فلم يقم له ﷺ أحد ليقول له: لقد ضربتني ظلمًا، أو أهنتني، ونلت من كرامتي. وقام رجل يقول: يا رسول الله، أخذت مني يوم كذا ثلاثة دراهم، فلم تُعِدها ــ نسيها ﷺ ــ فقال للفضل: «أعطه يا فضل»[1].

(ج) رجاحة عقله ﷺ وبعد نظره:

ترددت الرسل بين رسول الله ﷺ وقريش يوم الحديبية إلى أن جاء سهيل بن عمرو، فلما رآه ﷺ مقبلاً، قال: «قد أراد القوم الصلحَ حين بعثوا هذا الرجل»، وتم الصلح، وكان من بنوده أن يعود الرسول والمؤمنون صلَّى الله عليه وعليهم وسلَّم إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة هذا العام، وأن من أراد أن يدخل في حِلف محمد ﷺ دخل، وأُمور أُخرى، وكان أن جاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يقول: ألستَ برسول الله؟!، قال ﷺ: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟، قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟، قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟، قال: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني»[2].

قال ابن هشام: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: «اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أعرف هذا،

---

(١) انظر: فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي.

(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي.

ولكن أكتب باسمك اللَّهم، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللَّهُمَّ» فكتبها. ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو»[1].

ولو وقف رسول الله ﷺ عند حدود المظاهر والألفاظ لما كان يكون صلح الحديبية ــ والله أعلم ــ الذي سماه الله تعالى فتحًا مبينًا، ولما كان يتم انطلاق الدعوة الإسلامية حرة طليقة في الجزيرة العربية وما جاورها، ولما كان يكون فتح مكة الذي جاء إيذانًا بزوال صولة الشرك من بلاد العرب، والله أعلم.

(د) **شجاعته ﷺ:**

لما أكثر مشركو مكة على أبي طالب في شأن رسول الله ﷺ، حتى خيَّروه بين أن يكفَّ رسولُ الله ﷺ عن تنقيص دينهم، وتسفيه أحلامهم، وبين أن ينازلوه وإياه في الحرب حتى يهلك أحد الفريقين، بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ، فأعلمه بما قالت قريش، وقال له: أبقِ على نفسك وعليَّ ولا تحملني من الأمر ما لا أُطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه رأي وأنه خاذله وتارك نصرته، فقال ﷺ: «يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»[2].

● حين خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف لمحاربة هوازن وثقيف كمنَ هؤلاء للمسلمين، ثم حملوا على المسلمين حملة رجل واحد بسهامهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣١٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٩.

ورماحهم وحجارتهم، فانكشف أكثر الناس عن رسول الله ﷺ، وبقي هو ﷺ كما كان قبل بدء هذا القتال راكبًا بغلته، يقول: «إليَّ أيها الناس، هلموا إليَّ أنا رسول الله. . . أنا الرسول لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[1].

قال الله تعالى له: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، فأي شجاعة تكون لمن يأمره ربه سبحانه أن يقاتل الناس وحده؟!

(هـ) رحمته ﷺ:

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدَّ عليك من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلاَّ وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملَك الجبال، فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، قد بعثني الله، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملَك الجبال قد بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشركُ به شيئًا»[2].

● فتح الله تعالى لرسوله ﷺ مكة المكرمة دون قيد أو شرط، فدخلها وعليه سِلاحُ القتال وآلته، ومعه اثنا عشر ألفًا من المسلمين. . حتى إذا طهَّر المسجد من الأوثان، نظر إلى قريش وهم خاضعون أذلة بين يديه ﷺ، فقال:

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣١٧.

(٢) رواه البخاري: بدء الخلق ٧؛ ومسلم: جهاد ١١١.

«يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟»، قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

فكانت كلمة ما سمعها التاريخ من فاتح مظفر، وقد لا يسمعها أبد الدهر، ولكن لا عجب، فقد قال الله تعالى له: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال هو عن نفسه الشريفة: «إنما أنا رَحْمَةٌ مُهْداة»[2].

(و) حلمه وعفوه ﷺ:

أراد فَضالة بن عمير الليثي قتْلَ النبيّ ﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟»، قال: نعم، فضالة. قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبيّ ﷺ، ثم قال: «استغفر اللَّهَ»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِن خَلْقِ اللَّهِ شيءٌ أحبّ إليَّ منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلمَّ إلى الحديث. فقلت: لا. وانبعث فضالة يقول:

قالت هلَّم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك اللَّهُ والإسلامُ
لو ما رأيتِ محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تَكَسَّرُ الأصنامُ
لرأيتِ دينَ الله أضحى بيِّنًا ... والشركُ يغشى وجهَه الإظلامُ[3]

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧.

(٢) ابن سعد مرسلاً، وهو صحيح. كذا في الجامع الصغير للسيوطي.

(٣) تاريخ ابن كثير ٤/ ٣٠٨.

● قال أنس رضي الله تعالى عنه: دخل رسول الله ﷺ يومًا المسجدَ وعليه برد نجراني غليظ الصنعة، فأتاه أعرابي من خلفه، فأخذ بجانب ردائه، حتى أثرت الصنعة في صفحة عنق رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أعطنا من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله ﷺ، فتبسَّم، فقال: «مروا له»[1].

(ز) سياسته ﷺ:

أخبر زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ ركب حمارًا عليه إكافٌ تحته قطيفة فَدكية، فأردف وراءه أسامةَ بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدةِ الأوثان واليهودِ، وفيهم عبد الله بن أُبَيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجةُ الدابة خَمّر عبد الله بن أبيٍّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم عليهم النبيّ ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبَيّ: أيها المرء، لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقًّا فلا تؤذنا في مجالسنا وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه. قال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك.

فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبيّ ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: «أي سعد، ألم أتسمع ما قال أبو حُباب ــ يريد عبد الله بن أُبَيّ ــ ؟! قال كذا وكذا»، فقال: اعف عنه يا رسول الله واصفح فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة أن يتوِّجوه فيعصبونه بالعصابة، فلما رد

---

(١) (الرسول ﷺ) ١/ ١٤٦ عن الطبري.

الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرَقَ بذلك، فذاك فعل به ما رأيت. فعفا عنه ﷺ[1].

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يَهديَ زيد بن سعنة قال زيد: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمَّد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أَخْبُرْهما منه: يسبق حِلمُه جهلَه، ولا يزيده شدَّةُ الجهل عليه إلا حِلْمًا، فلبثت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

فخرج يومًا من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال يا رسول الله: أهل قرية بني فلان أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت أخبرهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا. وقد أصابتهم سنة وقحوط من الغيث، وأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم ما يعينهم فعلتَ. فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل عن جانبه أراه عمر، فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله.

قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، وقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا...؟! قال: «لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان»، قلت: نعم، فبايعني النبيّ ﷺ فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل، وقال: أعجل عليهم وأغثهم.

قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل مَحِلِّ الأجلين بيومين أو ثلاثة خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة دنا من

---

(١) رواه أحمد. وانظر: تفسير القرطبي ١٦/ ٣١٥.

جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه ونظرتُ إليه بوجه غليظ ثم قلت: يا محمد حقي، فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب مُطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم.

قال: ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني بنظره، فقال: أي عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فَوْتَهُ لضربتُ بسيفي هذا عنقك.

ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، ثم قال: «إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة. اذهب به فاقضه حقه وزده عشرين صاعًا مكان ما رُعْتَه». فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمر. فقلت له: ما هذه الزيادة؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدكها مكان ما رُعْتُك.

قلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، من أنت؟ قلت: زيد بن سعنة. قال: الحبر؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك إلى أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت وتفعل به ما فعلت؟ قلت: يا عمر: كل علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إلا اثنتين لم أَخْبُرْهما منه، يسبق حِلمُهُ جهلَهُ ولا تزيده شدة الجهل إلاَّ حِلمًا، فقد خَبرتهما فاشهد يا عمر أنِّي رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، وأُشْهِدك أنَّ شطر مالي ــ وإني لأكثرها مالاً ــ صدقة على أمة محمد ﷺ. فقال عمر: أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم، فقلت: أو على بعضهم.

فرجع عمر وزيدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. وآمن به، وصدقه، وشهد معه

مشاهد كثيرة. ثم توفي في غزوة تبوك مقبلاً. رحم الله زيدًا[1].

روى عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال: زحمتُ رسول الله ﷺ يوم حُنين وفي رِجْلي نعل كثيفة فوطئت على رِجل رسول الله ﷺ فنفحني نفحة ـ ضربني ضربًا خفيفًا ـ بسوط في يده وقال: «بسم الله، أوجعتني»، قال: فبتّ لنفسي لائمًا أقول: أوجعتُ رسول الله ﷺ. فبت بليلة كما يعلم الله، فلما أصبحنا إذا رجل يقول: أين فلان؟ قال: قلت هذا والله الذي كان منِّي بالأمس. قال: فانطلقت وأنا متخوف، فقال لي رسول الله ﷺ: «إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس، فأوجعتني، فنفحتك نفحة بالسوط، فهذه ثمانون نعجة خذها بها»[2].

٣ ـ القرآن الكريم والكتب السابقة:

هذا القرآن الكريم شاهدٌ صدقٍ على أن محمدًا ﷺ هو رسول الله، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٨، ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وما كان ليكون هذا القرآن العظيم إلا من عند الله تعالى، فقد جاء على أسلوب عظيم من البيان،

---

(١) موارد الظمآن في زوائد ابن حبان ٥١٧.

(٢) سنن الدارمي.

أعجزَ الإنسَ والجن على أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وأتى على أخبارٍ عريقة في القدم لا علمَ فيها لأحد من دون الله تعالى، وعلى أنباءٍ من الغيوب لا يطلع عليها أحد سوى الله تعالى، في بيانٍ متشابه متناسق: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ونظرة إلى مضمون القرآن الكريم من جهة العقيدة والعبادة، والتربية الفردية والاجتماعية، والتشريعات والنظم المختلفة، تدل على أن القرآن كلام الله تعالى أنزله على قلب رسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

نقل الشيخ سعيد حوى ــ عن كتاب «إظهار الحق» للأستاذ رحمة الله بن خليل الهندي ــ ثماني عشرة بشارة بظهور نبينا محمد ﷺ، تضاف إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فقال: البشارة الثانية عشرة: نقل يهوذا الحواري في رسالةِ الخبر الذي تكلم به أخنوخ الرسول، وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤:

(الرب قد جاء في ربواته المقدسة ليداين الجميع، ويبكت جميع المنافقين، على كل أعمال نفاقهم التي نافقوا فيها، وعلى كل الكلام الصعب الذي تكلم به ضد الله الخطاة المنافقون).

فجاء محمد في ربواته المقدسة فدان الكفار، وبكت المنافقين، والخطاة

على أعمال النفاق، وعلى أقوالهم القبيحة في الله ورسوله، فبكت المشركين لعدم تسليم توحيد الله ورسالة رسله مطلقًا وعبادتهم الأصنام والأوثان، وبكت اليهود على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام وبعض عقائدهم الواهية، وبكت أهل التثليث مطلقًا على تفريطهم في توحيد الله وإفراطهم في حق عيسى عليه السلام، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعض عقائدهم الواهية. . .[1].

٤ ــ الإسلام:

هذا الدين الذي بلّغه النبيّ الأميّ ﷺ إلى الناس شاهدُ صدقٍ على أن محمدًا ﷺ هو رسول الله.

لقد ولد ﷺ ونشأ يتيمًا، ما جلس إلى معلم، ولا قرأ في كتاب، ما خالط العلماء، ولا جالس أصحاب العلوم والمعارف، ومع ذلك فقد بُعث بهذا الدين العظيم الذي نجد فيه الحق كله، والعدل كله، والفطرة الصافية، والحاجة الصالحة، والعقل والحكمة.

جاء بدين على سنن أنبياء الله تعالى، في الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، وطاعته، وطاعة رسله فيما يأمرون، وينهون، ويقضون، ويحكمون.

جاء بدين على سنن الأنبياء في الحض على العبادات من صلاة، وزكاة، وحج، وصيام.

جاء بدين على سنن الأنبياء في الحض على طلب الحلال، واجتناب الحرام في المعاملات، والعلاقات مع الناس.

جاء بدين على سنن أنبياء الله تعالى في الدعوة إلى مكارم الأخلاق من

---

(١) كتاب (الرسول ﷺ) ٢/ ٢٤٤ ــ ٢٦٧.

الصدق، وأداء الأمانة، والحكم بالعدل، والحرص على هدى الناس.

ومهما تقدمت البشرية، وتقدمت علومها، فلن تجد في الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ مخالفةً للفطرة، أو خروجًا على العقل، أو مجانبةً للمصلحة الحقة، فضلاً عن معارضته قضايا العلم، وأسباب تقدُّم البشرية، بل كلما تقدَّمت البشرية وتقدَّمت علومها، فإنها تجد نفسها أنها تسير في طريق الإسلام حتى تبلغه بإذن الله تعالى، ويومذاك تقع على سعادة الدنيا وتطمح إلى النجاة في الحياة الآخرة، وذلك كائن بإذن الله تعالى.

٥ ــ شهادة الله تعالى سبحانه بنبوَّة محمد ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

ثم شهادة رسول الله ﷺ ــ وهو الصدوق الأمين ــ لنفسه أنه رسول الله:

قال رسول الله ﷺ في حق ذلك الذي أخبر عنه أنه من أهل النار: «أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله، ألم أقل إنه من أهل النار؟»، ثم أمر مناديًا ينادي فيقول: «ألا لن يدخل الجنة إلاَّ كل نفس مؤمنة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1].

ثمَّ شهادة المسلمين: فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها منذ بعثته ﷺ وحتى تهلك تلك الطائفة المقيمة على الحق قرب قيام الساعة، يشهدون أن محمدًا ﷺ هو رسول الله.

---

(١) الخبر في البخاري في قصة الذي خرج يقاتل في سبيل قومه ثم قتل نفسه: مغازي ٣٨؛ ورواه مسلم: إيمان ١٧٨؛ وأحمد ٣/ ٢٠٩.

وأكرم بشهادة المؤمنين له ﷺ، إنها شهادة توافق شهادة الله تعالى وملائكته عليهم الصلاة والسلام، وتصدر عن أقوام آمنوا بالله، واتبعوا دينه، وما قيمة إنكار كفرة فجرة لنبوته ﷺ؟! إنهم لا وزن لهم في أنفسهم ــ لعلمهم بأنهم يكذبون ــ ولا وزن لهم عند الله وعند الناس.

ومهما تقدَّمت البشرية، وتقدَّمت علومها، فسوف تزداد يقينًا أن محمدًا ﷺ حقًّا هو رسول الله، فلقد كانت دعوته وحياته وأقواله وأخلاقه وأحكامه ــ وما تزال ــ شواهِدَ صدق ومنائر حق، تقول: محمَّد رسول الله، محمَّد رسول الله، ولعلّ الله تعالى أن يهديها إلى الإيمان به، وإنها لمهتدية حين تصدق في الطلب، وذلك سعادتها في الدنيا ونجاتها في الآخرة إن شاء الله تعالى.

٦ ــ تأييد الله تعالى له ﷺ:

لقد أيَّد الله تبارك وتعالى نبيّه ﷺ من باب التصديق والإقرار له ﷺ فيما ادعى من النبوة، والبلاغ عن الله تعالى، أيده سبحانه بالمعجزات الباهرة التي أعجزت البشر، ــ وما تزال ــ على أن يأتوا بمثلها.

ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

(أ) معجزة معنوية ــ مادية ــ باقية أبد الدهر.

(ب) ومعجزات مادية ذهبت بذهاب وقتها، وبقي التصديق بوقوعها.

(أ) **المعجزة المعنوية الباقية**: هي القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على قلبه ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، والمجموع بين دفتي المصحف، والمنقول إلينا تواترًا، ليكون به للعالمين نذيرًا[1].

---

(١) اقرأ إن شئت في كتاب أركان الإيمان، للمؤلف، ما يدل على عظمة القرآن من وجوه، منها: مضمونه من أسباب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولقد تحدى الله تعالى المشركين والكفار، إنسهم وجنهم، قديمهم وحديثهم، على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا، وما يزال التحدي قائمًا، ولن يزال العجز فيهم قائمًا، قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

(ب) **المعجزات المادية**: وهي كثيرة تزيد على (٢٤٠) معجزة نذكر نماذج لها:

١ ــ **المعجزة العلوية السماوية (انشقاق القمر)**: عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما[١].

فلما وقع الانشقاق قال ﷺ: «اللَّـهم اشهد». فقالت قريش: هذا سحر ابن أبـي كَبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتينا به السفّار فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفّار، فقالوا ذلك[٢].

ورواه ابن جرير من حديث المغيرة، وزاد، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، ولم يزايل القمرُ السماءَ في انشقاقه، لقد انشق باثنتين، وسارت إحدى القطعتين حتى صارت وراء جبل حراء، والأخرى من الناحية الأخرى، وكلتا القطعتين في السماء.

وإذا ثبت هذا الأمر بالقرآن الكريم والسنَّة الشريفة، فلا حاجة إلى أن يقال هل ثبت ذلك تاريخيًّا، فإن التاريخ يغفل عن الكثير، ويحرف الكثير، ولربما عُرف ذلك ولم يصل إلينا، ثم إن الأمر كان ليلاً، ولوقت غير طويل، فلعلَّ الناس لم ينتبهوا له.

---

(١) رواه البخاري؛ وانظر: تفسير الإمام القرطبـي ١٧/ ١٢٦، ١٢٧.

(٢) رواه الطيالسي؛ والقرطبـي ١٧/ ١٢٧.

٢ ــ المعجزات الأرضية:

نبع الماء من بين أصابعه ﷺ:

● عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ، خرج ذات يوم لبعض مخارجه ــ في رواية أحمد: بالزوراء موضعٌ بالمدينة المنورة قرب المسجد الشريف ــ معه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة، فلم يجد القوم ما يتوضؤون به، فقالوا: يا رسول الله ما نجد ما نتوضأ به، ورأى في وجوه أصحابه كراهيةَ ذلك، فانطلق رجل من القوم، فجاء بقدح من ماء يسير، فأخذه نبي الله فتوضأ به، ثم مدَّ أصابعه الأربع على القدح، ثم قال: «هلمّوا»، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء. قال الحسن سُئل أنس: كم بلغوا؟ قال: سبعين أو ثمانين[١].

حنين الجذع شوقًا إلى رسول الله ﷺ:

● عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرًا؟ فقال: «إن شئتم» فجعلوا له منبرًا. فلما كان يوم الجمعة دَفَع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ، فضمها إليه تَئِنّ أنين الصبي الذي يُسَكّن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[٢].

---

(١) رواه البخاري: مناقب ٢٥؛ ومسلم: فضائل ٦. أقول: واعجب معي لِما قيل لبعض أولادنا في المدارس: لقد حرم محمد ﷺ لحم الخنزير لأن الخنزير كشف قربة الماء التي دفنها محمد ﷺ ليستخرج منها الماء بأصابعه احتيالاً على أصحابه. قاتلهم الله! إن لحم الخنزير حرام في اليهودية والنصرانية، ولأمر ما يكون أول ما يفعله عيسى عليه السلام حين نزوله «أن يكسر الصليب ويقتل الخنزير...».

(٢) رواه البخاري: مناقب ٢٥؛ ومسلم: مساجد ٩٧.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: خشبة تبكي شوقًا إلى رسول الله ﷺ، ونحن أحق بذلك.

٧ ــ ثباته ﷺ على المبدأ:

لقد ثبت رسول الله ﷺ على دعوته ودينه، ما تغيَّر منذ بدأ دعوتَه إلى أن اختاره الله إلى جواره، على رغم ما مَرَّ عليه من إهمال وسخرية، وتهديد واضطهاد، ثم إقامة الدولة وخضوع العرب له، وخَطْبِ الروم لودِّه ﷺ، وذلك شاهد صدق على أنه رسول الله ﷺ.

وأذكر هنا شيئًا عن العقبات التي تعرض لها ﷺ في دعوته:

١ ــ **الإهمال**: لقد أهملت قريش أمر رسول الله ﷺ حين كان يجتمع بالأفراد من الناس يعرض عليهم الإسلام، فيسلمون، ويتركون ما كانوا عليه من الشرك، والضلالة والفساد، ومع ذلك فقد كانوا حينًا يعتدون على بعض أولئك الذين يسلمون.

● قال ابن هشام: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا الصلاة خرجوا إلى الشعاب فاستخْفَوا، فبينما سعد، وابن مسعود، وخَبَّاب، وسعيد بن زيد يصلون في شعب اطلع عليهم نفر من المشركين فيهم أبو سفيان ابن حرب، والأخنس بن شريق، وغيرهم، فسبّوهم، وعابوهم، حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحي بَعيرٍ فَشَجَّه، فكان أول دم أريق في الإسلام[1].

٢ ــ **السكوت عن الدعوة ما لم تواجه شركهم وضلالهم، مما يدل على عدم صدقهم في عبادة الأصنام.**

جاء في السيرة: إنه لما عاب رسول الله ﷺ دينَ قريش وعقولهم التي

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٣.

تعبد ما تصنعه يد، مشى بعض كبار المشركين، وهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن وائل السهمي، إلى أبـي طالب ــ وليِّ رسول الله ﷺ وأبيه بعد أبيه ــ فقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ــ مخالفته ــ . فقال لهم قولاً جميلاً.

واعترض رسولَ الله ﷺ يومًا ــ وهو يطوف بالبيت ــ الأسودُ بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأُمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد: هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذتَ بحظك منه، فنزلت سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾[1] [الكافرون: ١ ــ ٢].

٣ ــ السخرية بقائد الدعوة محمد ﷺ ودعوته:

(أ) جاء أُبَـي بن خلف إلى رسول الله يومًا، ومعه عظمٌ بالٍ يفتته، ثم قال: يا محمد، أترى ربك يحيـي هذا بعد ما رمَّ وبلي؟ قال ﷺ: «نعم ويبعثك الله ويدخلك النار»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[2] [يس: ٧٨ ــ ٧٩].

(ب) كان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا ــ فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن، وحذر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية ــ، خَلَفَهُ في مجلسه ﷺ ــ إذا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٢.

(٢) المصدر نفسه بصفحته.

قام ــ النَّضرُ بن الحارث، فحدَّثهم عن رستم، وإسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمدٌ بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها، كما أكتبها، فأنزل الله فيه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ [الفرقان: ٥، ٦]، ونزل فيه أيضًا: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ ﴾ [الجاثية: ٧][1].

٤ ــ **عَرْض الدنيا عليه ﷺ ليتلهى بها عن الدعوة:** قال كعب القُرَظِي: حُدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، والنبيّ ﷺ في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه، وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكفَّ عنا، ــ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون ــ، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة[2] في العشيرة والمكان والنسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهَتهم ودينَهم، وكَفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل منا بعضها.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

فقال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكاد تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٦.

(٢) الشرف والحسب.

حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى فيه.. أو كما قال..

حتى إذا فرغ منه عتبة، ورسول الله يسمع منه، قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال نعم، قال: «فاسمع مني» قال: أفعل، قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت: ١ ــ ٤]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه.

فلمَّا سمعها عتبة منه، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمدًا عليها يسمع عنه. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم، قالوا له: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي! سمعت قولاً لا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، فخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعِزُّهُ عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم منه[1].

ولما دنا موت أبي طالب مشت قريش من جديد إلى أبي طالب تسأله أن

(١) سيرة ابن سيد الناس عن سيرة ابن إسحاق ١/ ١٥٠.

يكفّ رسول الله ﷺ عن سب آلهتهم، فبعث إليه قائلاً: هؤلاء سَرَوَات قومك، يسألونك أن تدع سب آلهتهم، ويَدَعُوك وإلـٰهك، فقال رسول الله ﷺ: «أي عم، أَوَلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب، ويملكون رقاب العجم؟»، فقال أبو جهل: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرًا أمثالها؟ فقال: «تقولون: لا إلـٰه إلاَّ الله»، فنفروا وتفرقوا، وقالوا: سل غيرها، قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها بين يدي ما سألتكم غيرها»، قال: فغضبوا وقاموا من عنده غِضابًا، وقالوا: لنشتمنك والذي أمرك بهذا. وانطَلَقوا. فنزل: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: ٦][1].

٥ ــ **تطويق الدعوة وانتقاصها**: قال ابن إسحاق: ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم ــ بعد أن تآمروا بينهم على من بقي من القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم ــ وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجْمِعوا فيه رأيًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا. قالوا: فأنت يا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقول فيه، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: فنقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول مجنون، قال: والله ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنعه ولا تَخَالُجِه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

---

(١) ابن هشام ١/ ٤١٧.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرَّقوا عند ذلك، فجعلوا يجلسون لسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ أحد إلا حذروه إياه، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر ــ بذكر ــ رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها[1].

٦ ــ **العنف في التنكيل والتعذيب له وأصحابه ﷺ**: كان عدو الله أبو جهل يُغري المشركين بالمسلمين ليضطهدوهم ويعذبوهم، ويفعل من ذلك ما استطاع، وكان إذا سمع بالرجل قد أسلم وله شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنضلّن رأيك، ولنضعنّ شرفك. وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفًا أغرى به[2].

وتآمر المشركون على ذلك، فقام الولي إلى وليه يضطهده ويضربه ويؤذيه، وقام المولى إلى مولاه، وقام الأقوياء ــ ظاهرًا ــ إلى الضعفاء، بل وقام الآباء والأمهات على أولادهم يعذبونهم، ويضطهدونهم، فلم يزد ذلك المسلمين إلا يقينًا وثباتًا والحمد لله.

بل لقد تمادى بالمشركين الأمر، فأرادوه ﷺ بالأذى... والقتل، فدفعهم الله تعالى، وحفِظ رسوله ﷺ، إلاَّ ما كان من الأذى الذي أصابه ليرفع الله تعالى به أجره عنده، وليكون قدوة للآخرين.

---

(١) سيرة ابن سيد الناس ١/ ١١٠. أرادوا الإضرار به وبدعوته ﷺ فقاموا بالدعاية الواسعة له، وهكذا إذا أراد الله أمرًا سخر لإتمامه حتى عدوّه....

(٢) ابن هشام ١/ ٣٢٠.

٧ ــ **الثبات على المبدأ والصبر في سبيل الله تعالى**: قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد الحرام ورفقة من المشركين من قريش، ونبيّ الله ﷺ يصلي، وقد نُحر قبل ذلك جزور، وقد بقي فرثه ــ ما في كرشه ــ وقذره، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى هذا القَذَر يلقيه على محمد؟ ــ ونبيّ الله ﷺ ساجد ــ، إذ انبعث أشقاها، فقام فألقاها عليه. قال عبد الله: فَهِبنا أن نلقيه عنه، حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها فألقته عنه، فقام، فسمعته يقول، وهو قائم يصلي: «اللَّـهُمَّ اشدد وطأتك على مضر سنين كسني يوسف، عليك بأبي الحكم بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف»، ورجل آخر، ثم قال: رأيتهم من العام المقبل صرعى بالطوى، طوى بدر، صرعى القليب[1].

قال نبت الأزدي: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية، وهو يقول: «يا أيُّها الناس قولوا لا إله إلاَّ الله تُفلحوا»، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبَّه حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعسّ من ماء، فغسل وجهه ويديه، وقال: «يا بنية لا تخشي على أبيك غيلة ولا ذلة»، فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ وهي جارية وضيئة[2].

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما رأيت قريشًا أرادوا قتل النبيّ ﷺ إلا يومَ ائتمروا به، وهم جلوس في ظل الكعبة، ورسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي مُعيط، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه حتى وَجَبَ لركبتيه ساقطًا، وتصايح الناس، فظنوا أنه مقتول، فأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه يشتدّ حتى أخذ بضَبعي رسول الله ﷺ

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٠٣.

(٢) الطبراني. ورواه أحمد ٣/ ٤٩٢، ومواضع أخر.

من ورائه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟[1].

٨ ـ **القتال له ولأصحابه ﷺ**: ثم كان آخر ما في قوس الكفر من منزع، كان القتال في بدر، وأُحد، والخندق وغيرها، حتى نصر الله تعالى رسوله وأصحابه ﷺ، ومكن لدينه في الأرض.

قال موسى بن عقبة رحمه الله تعالى: كان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزاها بنفسه (٢٧) غزوة، وكانت سراياه التي بعث فيها (٤٧) سرية، وكان ما قاتل فيه من المغازي (٩) غزوات: بدر القتال، وأُحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف[2].

وانتهت تلك المسالك والحمد لله إلى الانضواء: انضواء الذين كادوا للإسلام وأهله إلى الجهاد في سبيله، انضواء أولئك الذين أرادوه ﷺ بالأذى والقتل إلى الإيمان به ومخاطبته بقولهم: فداك أمي وأبي!!.

انضوى أولئك الذين آذوا المسلمين الذين سبقوهم إلى الإسلام، إلى الدخول بعدُ في الإسلام، واعتبار أولئك السابقين سابقين مقدمين عليهم عند الله تعالى ورسوله ﷺ.

إلا ما كان من أولئك الذين سبقت لهم الشقاوة، فماتوا بسيف الإسلام على الكفر، أو جاءتهم الآجال في غير الحرب، وهم على الكفر.

حين عاد رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة المكرمة، ولم يدخلها إلا في جوار المُطعم، قال يهدد قومًا من المشركين لعدوانهم، وقال للآخرين: «وأما أنتم يا معشر قريش، فوالله لا يأتي عليكم غير كثير

---

(١) ابن أبي شيبة.

(٢) سيرة ابن سيد الناس ١/ ٢٢٣.

حتى تدخلوا فيما تنكرون»[1]، وكان ذلك، فأسلموا والحمد لله رب العالمين.

وانقضت ثلاثة وعشرون سنة على دعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام فإذا بجزيرة العرب قد حطمت أوثانها، وأزالت معالم الشرك والضلال فيها، ودخل أهلها في الإسلام أفواجًا أفواجًا، جاءوا من كل حدب وصوب إلى المدينة المنورة يبايعون سيدنا محمدًا ﷺ، ويشهدون له بالنبوة والرسالة.

اللَّـهُمَّ إن هذه السيرة المثالية الفريدة شاهد وأي شاهد على أن رسولك محمدًا ﷺ هو رسولك حقًّا وصدقًا، وأنك أهديته رحمة إلى الخليقة، كما قال ـ فداه أمي وأبـي ﷺ ـ : «إنما أنا رحمة مهداة».

وأرسلتَـه رحمـة للعـالميـن كمـا قلـت لـه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

ما يَهدِم الإيمانَ برسُول الله ﷺ

● يهدم الإيمان برسول الله ﷺ كل ما يهدم الإيمان بالله تعالى، مما سبق ذكر بعض صوره عند الكلام على ما يهدم الإيمان بالله تعالى، ثم الارتداد عن الإيمان بأنه ﷺ رسول الله حقًّا، والخروج عليه مع العلم والاختيار دون الجهل والإكراه[2]!!!

فمن أنكر بعثة رسول الله ﷺ أصلاً، أو أنكر بعثه إلى الناس جميعًا، وإلى يوم القيامة، أو أنكر نزول القرآن الكريم عليه، أو أنكر سنته أصلاً، فإنه يخرج بذلك عن الإسلام، ويعدّ مرتدًا حلال الدم.

---

(١) ابن جرير الطبري في تاريخه.

(٢) لا يشترط العلم في المسلم المقيم بدار الإسلام فلا عذر بالجهل في دار الإسلام، فإن معرفة الفرائض والمحرمات، وما به يكون الإيمان أو يكون الكفر فرض عين.

● من أنكر ما ثبت في حقه ﷺ بالدليل القطعي الذي لا شبهة فيه، مثل إنكار إكرام الله تعالى له بانشقاق القمر، أو الإسراءِ بالجسد، والمعراجِ، أو أنكر ختم النبوات والرسالات به ﷺ، فذلك خارج عن الإسلام، لا يقبل الله تعالى منه صرفًا ولا عدلاً إلاَّ أن يتوب.

● من نسب إليه ﷺ الشرك، أو السحر، أو الظلم، والكذب، والعصيان، أو كتمان شيء، مما أمر بتبليغه من الإسلام، فقد كذّبَ به ﷺ وارتدَّ بذلك، معاذ الله.

● من زعم أنه ﷺ كان نورًا، وأنه لم يتصل بزوجاته جنسيًّا فهو مرتد، لأنه أنكر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وأنكر ما ثبت قطعًا من أبوته ﷺ لأولاده، معاذ الله.

ولكن نقول: إن الله تعالى وصفه بالنور والسراج المنير، فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ . . .﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿. . . وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، ولا نعلم حقيقة ذلك النور، والله أعلم[١].

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ . . .﴾ [المائدة: ١٥]، قال قتادة: يعني بالنور محمدًا ﷺ[٢].

وذكر في المواهب اللدنية وغيرها أنه ﷺ قال: «رأت أمي حين وضعتني نورًا أضاء لها قصور بصرى»[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا تكلم رسول الله ﷺ رئي النور يخرج من بين ثناياه[٤].

---

(١) انظر القرطبي ٦/ ١٦٨.
(٢) زاد المسير ٢/ ٢١٧.
(٣) المواهب ١/ ١٢.
(٤) الترمذي والدارمي.

وعن أبـي هالة في وصفه ﷺ قال: نور يعلوه.

وجاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كنت قاعدة والنبـي ﷺ يخصف نعله، فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورًا فبُهِتُّ، فقال: «ما لك بُهِتِّ؟»، قلت: جعل جبينك يعرق وجعل عرقه يتولد نورًا، ولو رآك أبو الوليد الهذلي لعلم أنك أولى بشعره حيث قال:

ومبـرأ مـن كـل عـيبـة حـيضـة وفسـاد مـرضـعـة وداء مـغـيـل
وإذا نـظـرت إلـى أسـرة وجـهـه بـرقـت بـروق العـارض المتـهـلـل

ويظن بعض الجهلة أن معنى كونه ﷺ نورًا: أنه جسم مشع، وهذا وَهَمٌ أو سوء فهم، فكأنه بهذا جعله ﷺ مصباحًا أو سراجًا أو لمبة كهربائية، وهو ﷺ أجلُّ وأكرمُ وأعظمُ من أن يكون كذلك.

نعم، لا مانع عندنا أنه ﷺ قد يظهر له ضوء محسوس كما يسطع من الأجسام المضيئة المشعة، لكن هذا لا يكون دائمًا، وإنما يكون عند الحاجة كمعجزة من معجزاته الخارقة للعادة، وقد ثبت هذا لمن هو أقل منه ﷺ، كما حصل للصحابـي الجليل أسيد بن حضير، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند النبـي ﷺ في ليلة ظلماء حندس فتحدثا عنده حتى إذا خرجا أضاءت لكل منهما عصاه فمشى في ضوئها[1].

* ومن الكفر والردة ونقض العهد:

● من اعتقد أن رسول الله ﷺ كان يتلقى القرآنَ والعلم ممَّن سُمِّي جبر الرومي؛ لأنه يُكَذِّب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ

(١) رواه البخاري. وانظر: محمَّد ﷺ الإنسان الكامل، للعلاَّمة المربِّـي الشيخ الدكتور محمـد بـن سيِّـد علـوي المـالكـي، المـدرِّس بـالمسجـد الحـرام، ص ٢١ ــ ٢٢، والله أعلم.

لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

● من رأى أن القرآن الكريم فيه قصصٌ طلبَ رسول الله ﷺ من بعضهم أن يكتبها له ففعل، لأنه يكذب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥، ٦]، وبالأحرى من زعم أن القرآن من تأليف رسول الله ﷺ.

● من قال أنه ﷺ كان يُصرع ويغيب عن الوجود، فإذا أفاق تلا على الناس كلامًا يزعم أنه من عند الله كما قال الخبيث كارلايل في كتابه «الأبطال».

● من سَبَّ رسول الله ﷺ أو انتقصه، ومن المعلوم أن الذمي إذا سب رسول الله ﷺ فإنه بذلك ينقض عهد ذمته، ويُقتل جزاء وفاقًا، كما يُقتل المسلم إذا فعل ذلك، والعياذ بالله.

❑ ❑ ❑

الفصل الرابع
أسباب الردّة

قال القاضي عياض: بيان ما هو من المقالات كفرٌ.

اعلم أنَّ تحقيق هذا الفصل وكشف اللَّبس فيه موردُه الشرع، ولا مجال للعقل فيه.

والفصل البيِّن في هذا: أن كل مقالة صرَّحت بنفي الربوبية أو الوحدانية أو عبادة أحد غير الله، أو مع الله، فهي كفر.

كمقالة الدهرية[1]، وسائر فرق أصحاب الاثنين من الديصانية[2]، أو المانوية، وأشباههم من الصابئين والنصارى، والمجوس، والذي أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة أو الشياطين، أو الشمس، أو النجوم، أو النار، أو أحد غير الله من مشركي العرب وأهل الهند والصين، والسودان[3]، وغيرهم ممن لا يرجع إلى كتاب.

---

(١) الدهرية: طائفة من الملحدين المعطلين ينسبون الأمور للدهر كأصحاب الطبيعة.

(٢) الديصانية: نسبة إلى رجل من المجوس نسب له هذا المذهب من القول بالنور والظلمة.

(٣) السودان: بعض أهل إفريقيا من عبّاد الأوثان وعباد بعض مظاهر الطبيعة كالماء، والريح، وبعض الحيوان.

وكذلك القرامطة، وأصحاب الحلول والتناسخ[1] من الباطنية، والطيارة من الروافض والبيانية والغرابية[2].

وكذلك من اعترف بإلاهية الله تعالى ووحدانيته، ولكنه اعتقد أنه غير حَيّ، أو غير قديم، وأنه محدث، وأنه مصور، أو ادعى له ولدًا، أو صاحبة، أو أنه متولّد من شيء، أو كائن عنه، أو أن معه في الأزل شيئًا قديمًا غيره[3]، أو أنه ثمة صانعًا للعالم سواه، أو مُدَبّرًا غيره.

فذلك كله كفر بإجماع المسلمين.

وكقول الإلـٰهيين من الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعيين.

وكذلك من ادّعى مجالسة الله والعروج إليه ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص، كقول بعض المتصوفة والباطنية، والنصارى، والقرامطة.

وكذلك نقطع بكفر من قال بقدم العالم أو بقائه، أو شك في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية، أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص وتعذيبها أو تنعمها فيها بحسب زكائها وخبثها.

وكذلك من اعترف بالإلـٰهية والوحدانية، ولكنه جحد النبوَّة من أصلها عمومًا، أو نبوَّةَ نبينا محمد ﷺ خصوصًا، أو أحد من الأنبياء الذين نصّ الله عليهم بعد علمه بذلك[4]، فهو كافر بلا ريب، كالبراهمة[5].

---

(١) أصحاب التناسخ: وهم القائلون بأن الأرواح إذا فارقت الأبدان تحلُّ في غيرها، فهي لا تعتقد بالبعث وحشر الأجساد، والجنة والنار.

(٢) الغرابية: هم القائلون بأن الرسالة جاءت من عند الله تعالى لعلي فأعطاها جبريل عليه السلام محمدًا غلطًا منه، لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب.

(٣) إشارة إلى قول الفلاسفة بقدم العالم.

(٤) بعد علمه بذلك: أي بعد علمه أن ذلك النبي ﷺ قد نص الله تعالى على نبوته في القرآن الكريم.

(٥) البراهمة: طائفة من الهنود أنكروا النبوات، وعبدوا النار.

ومعظم اليهود، والأروسية من النصارى، والغرابية من الروافض الزاعمين أن عليًا كان المبعوث إليه جبريلُ، وكالمعطلة[1] والقرامطة والإسماعيلية والعنبرية من الرافضة، وإن كان بعض هؤلاء قد أشركوا في كفرٍ آخر مع من قبلهم.

وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوة، ونبوة نبينا ﷺ، ولكنه جوّز على الأنبياء الكذب فيما أَتَوْا به، أو ادعى في ذلك المصلحة بزعمه، أو لم يدّعها؛ فهو كافر بإجماع كالمتفلسفين، وبعض الباطنية والروافض، وغلاة المتصوفة وأصحاب الإباحة[2]، فإن هؤلاء زعموا أن ظواهر الشرع وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان، وعما يكون من أمور الآخرة، والحشر، والقيامة، والجنة والنار، ليس منها شيءٌ على مقتضى لفظها، ومفهوم خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم. فَمضمّنُ مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر والنواهي، وتكذيب الرسل، والارتياب فيما أتوا به.

وكذلك من أضاف إلى نبينا ﷺ تعمّد الكذب فيما بلّغه وأخبر به، أو شك في صدقه، أو شبّه، أو قال إنه لم يبلِّغ، أو استخف به أو بأحد من الأنبياء، أو أزرى عليهم، أو أذاهم، أو قتل نبيًا، أو حاربه. فهو كافر بإجماع.

وكذلك نكفر من ذهب مذهب بعض القدماء في أن لكل جنس من الحيوان نذيرًا ونبيًا، من القردة والخنازير، والدواب، والدود وغير ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، إذ ذلك

---

(١) المعطلة: الذين جحدوا الألوهية، والرسالة، والأحكام، وما أكثرهم في زماننا وإن تغيّرت الأسماء.

(٢) الذين أباحوا المحرمات وادعوا أن من كمل نفسه لا تضره المعصية.

يؤدي إلى أن يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة، وفيه من الإزراء على هذا المنصب المنيف ما فيه، مع إجماع المسلمين على خلافه، وتكذيب قائله.

وكذلك نكذب من اعترف من الأصول الصحيحة بما تقدم ونبوة نبينا ﷺ، ولكن قال: كان أسود، أو مات قبل أن يلتحي، أو ليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي؛ لأن وصفه بغير صفاته المعلومة نفي له وتكذيب به.

وكذلك من ادَّعى نبوة أحد مع نبينا ﷺ أو بعده، كالعيسوية[1] من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب، وكالخُرَّمية القائلين بتواتر الرسل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة علي في الرسالة للنبي ﷺ، وبعده.

وكذلك كل إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة. وكاليزيعية[2] والبيانية منهم، القائلين بنبوَّة يزيع وبيان، وأشباه هؤلاء، أو من ادّعى النبوَّة لنفسه، أو جوّز اكتسابها، والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة المتصوّفة.

وكذلك من ادَّعى منهم أنه يُوحى إليه ــ وإن لم يدَّع النبوة ــ، أو أنه يصعد إلى السماء، ويدخل الجنة ويأكل من ثمارها، ويعانق الحور العين.

فهؤلاء كلهم كفار مكذبون للنبي ﷺ، لأنه أخبر ﷺ أنه خاتم النبيين،

---

(١) العيسوية: نسبوا لعيسى بن إسحاق بن يعقوب اليهودي، وكان في زمن بني مروان، وادعى النبوة في زمن مروان، وتبعه كثير من اليهود، وكان من مذهبه تجويز حدوث النبوة بعد نبوة نبينا ﷺ.

(٢) اليزيعية والبيانية: طائفتان من غلاة الرافضة تزعمان أن النبوة بل الإلهية تحل في بعض أئمتهم.

لا نبـي بعده، وأخبر عنه الله تعالى أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل كافة للناس، وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، وأن مفهومه المراد به دون تأويل ولا تخصيص.

فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعًا وإجماعًا وسمعًا.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كل من دافع نص الكتاب، أو خص حديثًا مجمعًا على نقله مقطوعًا به، مجمعًا على حمله على ظاهره، كتكفير الخوارج بإبطال الرجم[1].

وكذا نكفر من لم يكفر من دان بغير ملّة المسلمين من الملل أو وقف فيهم، أو شك، أو صحَّح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك.

وكذلك نقطع بتكفير كل قائل قولاً يتوصَّل به إلى تضليل الأمة، وتكفير جميع الصحابة، كقول الكُحيلية[2] من الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد النبـي ﷺ؛ إذ لم تُقَدِّم عليًّا. وكَفّرتَ عليًّا؛ إذ لم يتقدَّم ويطلب حقّه في التقديم.

فهؤلاء قد كفروا من وجوه: لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها، إذ قد انقطع نقلها ونقل القرآن؛ إذ ناقلوه كفرة في زعمهم.

وإلى هذا ــ والله أعلم ــ أشار مالك في أحد قوليه بقتل من كَفّر الصحابة.

---

(١) للزاني والزانية المحصنين، فإنه مجمع عليه صار معلومًا من الدين بالضرورة.

(٢) الكحيلية: فرقة من غلاة الرافضة قالوا بالتناسخ والحلول، وأن النبوة نور ينتقل من رجل إلى آخر، وأن الصحابة كفروا لما بايعوا أبا بكر، وعليٌّ كفر لما ترك حقّه.

ثم كفروا من وجه آخر بسبِّهم النبي ﷺ على مقتضى قولهم وزعمهم أنه عهد إلى علي رضي الله عنه وهو يعلم أنه يكفر بعده على قولهم ــ لعنة الله عليهم ــ وصلَّى الله على رسوله وآله.

وكذلك نُكَفِّر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلاَّ من كافر، وإن كان صاحبه مصرحًا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل. كالسجود للصنم، والشمس، والقمر، والصليب، والنار، والسعي إلى الكنائس، والبِيَع في أهلها، والتزين بزيهم من شدّ الزنانير، وفحص الرؤوس[1].

فقد أجمع المسلمون أن هذا لا يوجد إلاَّ من كافر، وأن هذه الأفعال علامة على الكفر، وإن صرَّح فاعلها بالإسلام.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير من استحلّ القتل أو شرب الخمر، أو الزنا مما حرم الله بعد علمه بتحريمه، كأصحاب الإباحة من القرامطة، وبعض غلاة المتصوفة.

وكذلك نقطع بتكفير كل من كذّب وأنكر قاعدة من قواعد الشرع، وما عُرف يقينًا بالنقل المتواتر من فعل الرسول ﷺ ووقع الإجماع المتصلُ عليه، كمن أنكر وجوب الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها وسجداتها. ويقول: إنما أوجب الله علينا في كتابه الصلاة على الجملة وكونها خمسًا وعلى هذه الصفات، والشروط لا أعلمه، إذ لم يرد فيه القرآن نص جليّ والخبرُ به عن رسول الله ﷺ خبر واحد.

---

(١) فحص الرؤوس: أي حلق أوساطها وتركها كمفاحص القطا ــ وهي أعشاشها التي تبيت فيها ــ، وكان ذلك شعار الكفار، مع استحسان ذلك والرضا به. قال أحد مشايخنا بعد ظهور لبس القبعة من بعض المسلمين، وجرى التكفير على ذلك، قال: كفَر فلبسها، لا أنَّه لبسها فكفر. والتحرُّز عن التكفير أحق. والله أعلم.

وكذلك أُجمع على تكفير من قال من الخوارج: إن الصلاة طرفا النهار[1].

وعلى تكفير الباطنية في قولهم: إنَّ الفرائض أسماء رجال أُمروا بولايتهم، والخبائث والمحارم أسماء رجال أُمروا بالبراءة منهم.

وقول بعض المتصوفة: إن العبادة وطول المجاهدة إذا صفتْ نفوسهم أفضتْ بهم إلى إسقاطها، وإباحة كل شيء لهم، ورفْعُ عُهَدِ الشرائع عنهم.

وكذلك من أنكر القرآن أو حرفًا منه، أو غيّر شيئًا منه، أو زاد فيه، كفعل الباطنية والإسماعيلية، أو زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ، أو ليس فيه حجة، ولا معجزة.

وكذلك من أنكر شيئًا مما نصَّ فيه القرآن بعد علمه أنه من القرآن الذي في أيدي الناس، ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلاً به، ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره بأنه لم يصح النقل عنده، ولا بلغه العلم به، أو لتجويز الوهم على ناقله فنكفره بالطريقين المتقدمين[2]: لأنه مكذب بالقرآن. مكذب للنبي ﷺ لكنه مستترٌ بدعواه.

وكذلك من أنكر الجنة أو النار، أو البعث أو السحاب، أو القيامة، فهو كافر بإجماعٍ للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواترًا.

وكذلك من اعترف بذلك لكنه قال: إن المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معانٍ غير ظاهرة، وأنها لذات روحانية ومعان باطنة،

---

(١) أي فرضيّتها فقط في طرفي النهار.

(٢) مخالفة الإجماع والنقل الصحيح عن النبي ﷺ.

كقول النصارى، والفلاسفة والباطنية، وبعض المتصوفة. وزعم أن معنى القيامة الموتُ، أو فناء محض، وانتقاض هيئةِ الأفلاك وتحليل العالم، كقول بعض الفلاسفة[1].

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

(١) عن الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، بتحقيق الأساتذة: أسامة بن عبد الكريم الرفاعي ومحمد أمين قره علي ومن معهما ٢/ ٦٠٤، وما بعدها.

obeikandl.com